الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..
بدر

مأساة ديميتريو

رواية

حنا مينه



دار الآداب

حنا مينه

مأساة ديمتريو

رواية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
نيسان (ابريل) ١٩٨٥

صوت ١

«لا يمكن

«لا يمكن

«لا يمكن

«يا ديمتريو، أقول لك لا يمكن، أتفهم؟ للمرة الألف، هذا الشهر، والذي قبله، قلت لك لا يمكن، أتفهم؟».

صاح ديمتريو الآخر: «أنت تكذب أيها الوغد، يا جوّاب الآفاق، تكذب وتعلم أنك تكذب، فلماذا تتظاهر بما لا تؤمن؟ حدّق بوجهك في المرآة.. ألا ترى وجهك؟».

عبر المرآة، حدّق ديمتريو بديمتريو، تحديقة خصمين متباغضين ومتلازمين. حسناً، قال أحدهما للآخر، اتفقنا أنه لا يمكن. يجب أن نجزم، هذه الليلة، وإلى الأبد، بأنه لا يمكن. لقد اقتنع كلانا باستحالة ذلك، ومن الغد تتحوّل هذه القناعة إلى سلوك، كالذي كان، قبل أن تكون هي، قبل أن يكون اللقاء.

وفي هذه اللحظة، شعّ شيء ما، في الجانب الأيسر من الصدر، وترك إحساساً بالاختلاج كما يحدث تحت تأثير نزق عصبي، عقب فكرة تمرّ بالبال، أو صورة تهزّ الخاطر، وللتأكّد من السلامة مدّ ديمتريو الواقف أمام المرآة، وكذلك ديمتريو الذي في داخلها، يده إلى الجانب الأيسر من صدره وانتزع لفافة ورقيّة على شكل قلب، فتحها، ثم تحوّل إلى المصباح ونظر فيها، وإذ لم يجد شيئاً داخله سرورو وراحة، فراح يطويها ليعيدها إلى مكانها، فلما فعل، لمح ظلالاً عليها. كانت في الورقة خطوط رفيعة لا تكاد تبين، تزداد ارتساماً كلما ازدادت اقتراباً من الجسم، وامّحاء كلما ابتعدت عنه، خُيّل إليه، للحظة، أن الخطوط المستقيمة تنحني قليلاً وتتلاقى في زاويتين حادّتين جداً، ثم ترتعش الخطوط، وتتجسّم، ويرفّ من فوقها ألق ذكّره بما كان قد رأى، يوماً، على ثغر المجدليّة، وسمح الألق لنفسه بالانقسام، لتتشكّل من كل قسم شفة بلون زنبقة الحقل، تنفرجان عن أسنان مرمرية، كحصاة تحت رقراق بحيرة جبليّة، والحصاة تومض بهاء أبيض، حين تنشمر الشُفة العليا، مظهرة نتوءاً وردياً من اللحم الذي يصلها باللّثة، ثم تتكور، في تقوّس بَدْري، لتغدو، مع الشفة السفلى، محارة مرجانية تنشقّ عن تلك الحصاة اللؤلؤية.

صاح ديمتريو: «إنها هي! إنها هي!» وأغمض عينيه مستسلماً إلى النشوة التي بعثتها الرؤية، شاعراً، الآن، بالعجز، عن مقاومتها. لقد تضعضعت إرادته. والقناعة التي توهّم أنها حصلت تزعزعت، وسلوكه، من الغد، لن يكون كما كان، قبل أن تكون هي، قبل أن يكون اللقاء.

فتح عينيه خائفاً، كارهاً أن يرى ديمتريو الآخر في المرآة. سيصيح به: «أيها الوغد، يا عازف الكمان المتشرّد، أتحسب أنك قادر على التمويه إلى الدرجة التي تخدعني بقناعتك الكاذبة؟ إذا كنت صادقاً، فامْحُ ما على ورقتك التي أخرجتها من صدرك، وعندئذ فقط يتحول سلوكك كما كان، قبل أن تكون هي، قبل أن يكون اللقاء، وتعود ورقتك بيضاء، كما كانت قبل الكتابة».

نظر ديمتريو إلى ديمتريو في شكاة صامتة: لماذا تتهمني؟ أنت تعلم أنني لم أكتب شيئاً على هذه الورقة، ولم أرسم عليها خطاً، صدّقني، أقسم لك فصدقني.. حسناً.. أنت لا تصدقني، أنا نفسي لا أصدق نفسي، فما دام على ورقتي رسم، فلا بد أن يكون ثمة رسام، هذه بدهية يا توأمي، يا ذاتي، وأنا لا أجادل في البدهيات، لست سفسطائياً، ولا خيالياً، واقعي أنا، واقعي أكثر مما يجب. ولم يخطر لي أن أنقض المسلمات: واحد مع واحد، والخط المستقيم، والعلة والمعلول.. كل هذا صحيح، وقد عشت على الإيمان بهذه الصحة، ولكن الرسم، على ورقتي، لم أرسمه أنا.. الألق المجدلي، الحصاة المرمرية، المحارة المرجانية، والشفاه التي بلون زنبقة الحقل، لم أرسمها أبداً، ولا أستطيع لو أردت، وصاحبتها لم ترسمها أيضاً، لا أنا ولا هي، كلانا بريء، كلانا يقول لا يمكن، والمنطق يقول لا يمكن، والعقل يقول لا يمكن، ومنذ أبصرتها قلت لا يمكن.

توقف ديمتريو عن دفاعه ليستزيد من قدرته على الإقناع. استشعر تصاعداً في طاقته المعنوية، وكمن يحلل نفسه، خيل إليه أن كشفه عن جذور عقدته قد وضع في يده إمكانية حلها. صار واضحاً الآن أن الحل رهن بانتصار إرادته على عاطفته، وكان معتداً بتلك الإرادة

فأضاف: «أؤكد لك يا توأمي أن الأشياء ستكون كما أريدها. وإذا كانت عاطفتي قد ربحت على إرادتي، فإن إرادتي لا تستسلم للهزيمة. إنها تصارع.. أنا أصارع، لأنني مقتنع. ومن الغد أحول قناعتي إلى سلوك، كالذي كان، قبل أن تكون هي، قبل أن يكون اللقاء، وتعود ورقتي بيضاء، كما كانت قبل الكتابة».

كانت أمامه، على الورقة، ابتسامة. تناول ممحاة واستعدّ لمحو الابتسامة، لكنه احتار من أين يبدأ. ما يريده هو إطفاء الألق المشع في تلك الابتسامة، وسيفعل بغير تردد، وكل ما عليه، لكي ينجح، أن يكتشف منبع الألق، وينقضّ عليه بممحاته، فيزيله ويستريح.

أيها السيدات والسادة، يا من عانيتم كما أعاني، هل تعرفون، في ثغرٍ شفتاه بلون زنبقة الحقل، وتكويرته اللوزية محارة مشقوقة عن حصاة لؤلؤية، من أين ينبع ألق الابتسامة؟ أنا واقعيّ يا أهل مملكتي، منطقي، أؤمن بالعلة والمعلول، والرسم والرسام، وأعرف مثلكم، أن الألق سراب، لكنني بخلافكم أبحث عن سره، فهل اهتدى أحد منكم إلى هذا السر، واستطاع أن يمحوه؟

تشيرون إلى الشمس؟ ألم أقل لكم إنني واقعي ومنطقي؟ لألاء الشمس لا يطفأ يا سادتي. ستنطفىء هي لذاتها يوماً. وهذا بعيد، بعد ملايين السنين، وأنا أسألكم عن شمسي، عن الابتسامة التي في ورقتي، من أين ينبع لألاؤها؟ بين الشفة والشفة وميض برق، فمن قبض منكم على وميض برق؟ ثغر دليلة كانت له شفتان أيضاً، بينهما لذة وسمّ، وثغر الجوكندا له شفتان، تنثّ منها قداسة. شيء يدعو إلى الراحة والطهر، وهذا المرسوم على ورقتي، يختلف. لا سم ولا

ترياق، زاويتا قوسين شفويين. ينفرجان عن ابتسامة، وابتسامة تضيء، وأنا أبحث عن مصدر الضوء، عن سره.

«حسناً ـ قال ديمتريو ـ سأمحو الشفتين معاً، ما دام منبع الألق محصوراً فيهما».

قالها بتأكيد، وقد استشعر حاجة، كنداء الثأر، إلى محو الشفتين اللتين أمامه على الورقة، فلما رفع رأسه فجأة ونظر في المرآة، التقى ديمتريو الآخر، الذي سأله بهدوء وتهكم:

ـ ماذا تنتظر؟ تخاف؟ يا لك من جبان، آه يا توأمي العزيز، أنت تخدع نفسك في غير طائل، ولو أدركت أن ما تردده من عزم على محو الابتسامة وهمٌ ينشد عزاء مسكيناً لأرحتني واسترحت.. ألقِ بالممحاة من يدك. ألقها وامض غداً، كاليوم، كالأمس، في سلوكك المألوف، العاجز، التابع. فالذين يمحون أقدار البسمات والعبرات، يملكون أصابع غير أصابعك.

نكس ديمتريو رأسه معترفاً بصدق وعدالة هذا الحكم. لم يكن بحاجة إليه أصلاً، فهو يعيش منذ شهور، يبني الهيكل في المساء، وينقضه في الصباح، «آه يا آلهة اليونان ـ هتف ـ صخرة سيزيف أرفع؟ أنا لم أفش سر النار، ولم أعشق آلهة من الأولمب. وما أنشده بسيط: قضاء ما تبقى من رحلة العمر في هدوء وسلام، بعد أن ودعت الصبا وحسبت ألّا معاد، فالشجرة قد دبّ فيها اليباس. لست بستانياً، ولا أعرف أن الشجرة تخضرّ بعد يباس، وها هي الشجرة تخضرّ بعد يباس».

كم يدوم هذا؟ لا تسألوا.. المعجزة تحدث أحياناً، وإذ تحدث،

في غير أوانها، تكون معجزة المعجزات. وعلى فراش الموت، قبل الغروب الأبدي، دعاني يوماً رجل وقال لي: «اعزف شيئاً من ألحانك يا ديمتريو، أحس أن زهرة جديدة تتفتح على غصني» قلت: «سمعاً يا سيدي» ولم أعزف، حسبته في هذيان النزع، وتهيبت دموع الأهل، لكنه مد يده النحيلة، الصفراء، المعروقة الأصابع، وامسك بيدي وقال: «ديمتريو! الحطّاب آتٍ لقطع الشجرة. أسرع. ساعد زهرتي الأخيرة على التفتح قبل أن يفوت الأوان. أنا سعيد يا ديمتريو لأن شجرتي ستقطع وهي خضراء. كذلك أردتها وكذلك كانت وأتمنى لشجرتك أن تكون مثلها، كما أتمنى لك، من بعدي، طول البقاء ولكن أتمنى لك بقاء أخضر، يزهر حتى النهاية، فهل تعزف قليلاً كرمى لخاطري؟».

عزفت..

كماني تبلل بدموعي. ترطب الخشب وصار أرخم. صار أعمق. وأزهر الغصن، واللحن أزهر، ومضيت أعزف، دون انتقاء، دون عناء. أحسست أن زهرة ما، في داخلي، تتفتح أيضاً، وأن الربيع قد ألغى الشتاء، وأنه يجري في يدي وقوسي وكماني. وجدت في نفسي شجاعة فائقة على مقاربة الموت، على ملاقاته. صار الموت أنعم، مخملي الملمس، ومرّ بقربي، وحطّ على صدر صاحبي، وتسلّل إليه رفيقاً، هادئاً، كالنوم عقب النعاس، ولم أشعر بشيء. ولم أعِ ما حدث إلا عندما تقدّمت زوجته وربتت على كتفي قائلة: «توقف يا ديمتريو. قضي الأمر».. نظرت إلى الرجل.. كان يبتسم وقد مات. الشجرة الخضراء ظلت خضراء حتى قطعت.

وقد نسيت الرجل وأمنيته مع الأيام. لم أكترث لما قاله وهو على

الخط الدقيق الفاصل بين الحياة والموت. ذلك أن أمر الشجرة لم يعنني كثيراً. فحبي الأخير، كإيماني القديم، كغصني الذي كان مليحاً وانثنى، كصورتي يوم لا بياض ولا غضون، كمودّاتي التي سلفت، كولدنات يفاعتي التي يبكي عليها وقار كهولتي، انقضى، مضى، خلفني وحيداً أمام النار المنطفئة، أمام العدم القاسي الزاحف نحوي بعيون باردة. ولم أكن، يا إخوتي، صانع معجزات، ولا ساعدت، مرة، معجزة على الحدوث، وحكاية الاخضرار بعد يباس لم أحفظها، لم تكن لي علاقة بها، أنا الذي عرف الهوى حتى ملّه، لأنه أبداً لم يروّضني، لم يحتفظ بي أسيراً في قبضته، ولاجعلني أتألم حتى البكاء.

ولأني نشأت محروماً من نعمة الألم في الحب فقد نبذته، خيل إلي أني تجاوزته، أو أنني لم أعرفه، لأنه، حين كان يأتي، خفيفاً كالصداع الذي يداوى بحبة مسكّن، أو كالشهية التي تخمدها لذة وجبة، كنت أغمض عيني وأنام، وكان الصباح كفيلاً بأن يجعل في الماضي، ما كان مساء في الحاضر، حتى إذا بزغ نجم جديد، كان يكفي أن أدير له ظهري لأنساه، أو أدخل بيتي حتى لا يعود له تأثير فيّ.

وحين رأيت هذه الابتسامة، ذلك اليوم، حسبتها احدى تلك النجوم البعيدة، التي يضحك من حرارتها السائر في الصحراء. غير أني كنت مخطئاً، وأنتم تشهدون على خطئي، وأنا أرغب في محو هذه الابتسامة، وأنتم تشهدون على فشلي، فمن منكم يدلني على مادة كيميائية تعيد ورقتي بيضاء كما كانت؟ الزمن تقولون؟ لا.. الزمن يحيل الأشياء إلى ذكريات وأنا ألعن الذكريات، أمقتها، أمقت

ومضة الاسترجاع هذه، التي تعيش فيها الكفّ الخالية على وهم ما كان، وينضفر الجسم، في شراسة ليالي السهد، على أشباح أجسام.

وحتى لو ملكتم هذه المادة الماحية، وجربتم أن تساعدوني، لما غفرت لكم بقية عمري.. لا تصدقوني إذن، أنا ديمتريو الذي يعيش مأساته المروعة. إن ذاتي لا تصدق ذاتي وديمتريو الآخر لا يصدقني، يصيح بي: «كُفّ عن عبثك. تَوقّفْ عن محو ما في ورقتك، وأعدها إلى صدرك، ثم احمل كمانك واذهب إلى تلك السيدة واعزف لها أناشيدك».

توقف ديمتريو عن عملية محو الابتسامة. كانت يده، في أصابعها الثلاثة المضمومة، قد حكّت الورقة طويلاً فتصلبت شرايينها. ولم يعاود النظر في المرآة. أحس بعداء نحو توأمه الذي سيطالعه فيها. كان هذا التوأم بغيضاً بقدر ما كان حقيقياً، كان شاهداً لا يمكن حذفه ولا خدعه ولا إسكاته.. وفي فترة الاستراحة، ريثما يعود الدم إلى الأصابع المتيبسة، راح ديمتريو الآخر يتحدث..

في ذلك الأصيل كانت السيدة تقرأ في كتاب. وكان زوجها يعالج طائراً مكسور الجناح. وكنت أنا أعلّم طفلها العزف على الكمان.. لقد استدعيت لأداء هذه المهمة وقبلت، وعبرت الصالون إلى الغرفة، وبعد الانتهاء عبرته إلى الباب، وحييت بأدب وخرجت. لم يبق في ذهني، ذلك الأصيل، من هيئة البيت سوى البوق من قرن الأيل، وموقد الحطب، والزوج الذي يعالج طيراً. وفي الدرس التالي، حين عبرت الصالون، كان الزوج في مكانه والزوجة على النافذة فأعطيت درسي وانصرفت.

انقضى على ذلك اسبوعان، فلما كان الثالث، سمعت، وأنا أهمّ

بطرق الباب، عزفاً على الكمان. كان النغم شجياً، ينداح تحت قوس رشيق، ليس لتلميذي بأية حال. تريثت في الدخول. فلما خفت وقفتي المتنصتة، طرقت الباب ودخلت. كانت السيدة تسرع في إيداع الكمان صندوقها، كأنها ترغب عن معرفتي بعزفها. توقفت على العتبة لأخلع الواقي المبلل، واستقامت السيدة من انحناءتها على الصندوق، ونظرت إلي مبتسمة متسائلة: هل سمعت عزفي؟

الوجه باسم، فيه مزيج من كبرياء ووداعة. ولونه الوردي يشف عن عذوبة جارحة. والعنق إلى طول، والشعر ذهبي، مرسل، وعيناها مضيئتان، وسطهما نقطة عسل أصهب.

كانت، هي الأخرى، في نهاية الصيف، في الزمن الذي ينضج فيه العنب ويعتصر. وكالخوخة الصفراء، في عزّ الاستواء، شهية ومثيرة، وشيء في المقلتين، كالرضاب، كالالتماعة في العين الشبقة، يغزل بوحاً ساكناً، صارخ الفتنة.

حسناً! كل ذلك رأيته، وربما تخيّلته، في تلك الليلة، وأنا تحت تأثير اضطراب لا أدري أكان مبعثه عزفها أم وجهها، هذان اللذان، في السمع والبصر، أيقظا احساساً مبهماً من الاعجاب والرغبة، وأحدثا ما يشبه الهزة التي تتشقق لها قشرة الأديم النفسي فتنبجس الأشواق في اندفاعة عفوية.

لقد سبق ورأيتها فلم أتأثر ولم أضطرب. طوال أسبوعين، وأنا أتردد على البيت لإعطاء الدروس، فكيف حدث ولم يلفتني وجهها؟ هل كان ذلك لأنها كانت مستغرقة في كتابها، حاجبة عني ملاحتها؟ ولماذا لم استلطفها في المقابلة الأولى؟ ألأنها لم تكن واقفة؟ ألأنها لم

تنظر إليّ، أو لأنها لم تبتسم؟ يا سيدتي لماذا ابتسمت إذن؟ أنا لا أتهمك؟ أسمعت يا ديمتريو، يا توأمي، أنا لا أتهم السيدة لأنها ابتسمت، فهي لا تستطيع إلا أن تبتسم، وأنا، كذلك، لا أتهم نفسي. أنا لا أفعل شيئاً يا ديمتريو، ولم أشعل قنديلاً على شجرتي الخريفية.

دعتني إلى أخذ حظ من دفء وكوب من شاي. وقال زوجها مؤيداً دعوتها: «نعم، هذا ما يجب» فقبلت شاكراً، شاعراً أن لطفاً كبيراً يحيطني، ثم سألتني عن أشياء، وأجبتها بأشياء، ولما أعطيت درسي وخرجت، تلفّتَ بعفوية إلى الباب. أحسست فراغاً قد حدث، ولهفة إلى العودة تشهّت، وطغت صورتها على موقد النار وقرن الأيل ولم يعد رعي الماعز في الفلاة تشرداً حراً ومرجواً لجوّاب الآفاق. لقد تدجّن الحيوان البري، وصار ينتظر موعد دخول المدجن بحنين لاهف. وفي الليل طفقت الابتسامة تطل، فأدركت بفرح وأسف، أن قدري يوشك أن يقول كلمته، وصحت في محاولة للردع، هذا لا يمكن، ومنذ تلك الساعة وأنا أصيح لا يمكن وسأظل أصيح، حتى النهاية، لا يمكن..

سكت ديمتريو الذي في المرآة، واستأنف ديمتريو الذي أمامه عمله في محو الابتسامة. كان يعمل، الآن، مدفوعاً برغبة لا تقاوم، في إزالة الابتسامة عن ورقته، لكي يعيدها إلى مكانها، ويذهب إلى فراشه فينام، كما في الأيام الخوالي، بغير قلق ولا انفعال.

ساعة. ساعتان. ثلاث.. كلّت يده اليمنى فجرّب اليسرى. عاد إلى اليمنى ثم إلى اليسرى... ظلت الابتسامة في موضعها من الورقة. هي لا تظهر، لا تختفي، لا تتحرك، لا تثبت. يحسها إذ

يراها، ويراها إذ يحسها، ويعذب نفسه حتى التلف ليجنبها الوقوع في حب بغير جدوى.

تهالك أخيراً تحت ضغط إعياء شديد. دخل في الدائرة الحلزونية المقفلة للجنون الواعي، فتوقف، وهتف من أعماقه:

ـ وبعد.. لماذا لا أنتهي أو أموت؟

وأجابه صوت من المرآة:

ـ لأن الموت راحة، وبينك وبينه مراحل بعد.. لا تتعب، صخرة سيزيف لن ترفع بهذه الطريقة. لقمان الحكيم، أيها الغبي، هتف بتلميذه وهو يعالج الورم: عليك بالنار يا حمار.. اكوِ.. أحرق، الحق الأصل.

قال ديمتريو متوسلاً: «أعد علي ما قلت يا توأمي العزيز.. أنا لا أفهم.. أنا في حال لا تسمح لي بأن أفهم.. أسمع ولا أفهم؛ فترفّقْ بي وقل لي، ماذا أفعل؟ أين الأصل وأين الفرع، وما شأن حكيمك الفاني فيما أنا فيه من بلاء؟».

تحركت الورقة، أمامه، وندّ عنها صوت يقول: «أنا هو الفرع» وخشخشت ورقة ما، في رأسه، وندّ عنها صوت يقول: «أنا هو الأصل» فنظر ديمتريو إلى ديمتريو وتنفس بارتياح، كمن ألقى عن كتفه جبلاً من الصوّان. وقال متواضعاً: «الآن فهمت... شكراً.. لقد فهمت.. كان علي، منذ البدء أن أفهم، ولكن حالي كما ترى، اعذرني».

لف الورقة على شكل قلب وأعادها إلى مكانها. ماذا ينفع

الانسان أن يمحو إذا كان ثمة من يكتب؟ الدماغ يملي والقلب يملي عليه، وبدون إصلاح الدماغ لا يمكن إصلاح القلب. تلك بدهية يا ديمتريو، وأنت مولع بالبدهيات. تأمل كيف فاتك أن تلاحظ مسألة بهذه البساطة. لا تضيع الوقت، اترك القلب وعالج الدماغ، أحرق السرطان الذي هناك، وعندئذ يشفى الأصل، فتشفى، بدورها، الفروع.

نزع طاسة رأسه، وأخرج المخ الهلامي، اللزج، فوضعه في صحن أمامه، وتركه معلقاً بالرأس بعرق كالمشيمة. كان يتوقع أن يرى فيه ندبة ما، بثوراً، ورما، فيعالجه بمكواة اللحام التي استحضرها. سيبرهن للقمان أنه ليس حماراً مثل تلميذه، وأنه يعرف أن يحرق السرطان ويجرؤ على ذلك، ثم يذهب في اليوم التالي لتعليم تلميذه، بسلوك كالذي ذهب فيه للمرة الأولى. غير أن مخه كان صحيحاً. خالياً من كل أثر، وكان على قلبه أن يكون صحيحاً كمخه. هذا قانون الأصل والفرع، وهو قانون منطقي إلى درجة أن اختلاله سيكون اختلالاً للكون ونهاية له. ماذا تفعل الآن يا ديمتريو؟ حذار أن تعبث بمخك. قلّبه، هكذا، بلطف، بتؤدة. افعل ذلك مرة، ومرة، وثالثة. يئست؟ إذن أعده إلى مكانه، وامض صباحاً كما رجعت مساء، حاملاً تعاستك مرسومة بحبر لا يمحى. لا تقل بعد اليوم لا يمكن.. كل شيء ممكن حين تريده أن يكون ممكناً.

صاح ديمتريو بديمتريو: «ولكني لا أريد، قلت لك مئة مرة، لماذا لا تصدقني؟ لقد تعذبت الليلة بما فيه الكفاية، لأثبت لك بأنني لا أريد، أفلا تسمع ما أقول؟».

قال ديمتريو: «بلى أسمعك، ولكني لا أصدّقك. أنت تريد ولا تعرف أنك تريد، هذه هي المشكلة، حدّق في مخك وأخبرني ماذا ترى فيه».

فعل ذلك ديمتريو فلم ير شيئاً.

ـ آه يا عزيزي! قال له توأمه. ما كل من له أذنان للسمع يسمع، وما كل من له عينان يرى. افتح ناظريك جيداً. فقد خلقا لكي يفتحا، وخوفك أغشى عليهما. اهدأ. تمالك أعصابك. حين يكون في المخ شيء فلا فائدة من تجاهله، الأجدى أن يعالج، أن يكوى، أو يستأصل. لقمان، قبل آلاف السنين، أدرك هذه الحقيقة وعمل بها، وأنت تجهلها أو تتجاهلها. لا أحد يصاب في مخه ويعالج من أطرافه فيشفى. إذا فسد الرأس فسد الجسم. عالج رأسك أولاً وإذا عجزت فاقطعه. هيا.. جرّب مرة أخرى.

جرّب ديمتريو ولم يفلح. لا شيء في المخ. ومع ذلك غدا واثقاً أن فيه شيئاً. قال بتسليم:

ـ أنا لا أجد شيئاً في مخي. فشلت في العثور على هذا الشيء وبحاجة إلى من يدلني عليه، فهل تفعل؟

قال ديمتريو الآخر: أن أدلك عليه فهذا بسيط. أحسب أنك تتكلم بشكل معقول الآن. يبقى أن العلة لا تزول بمجرد الاهتداء إليها. ولقد هديتك من البدء إلى علتك. بل إنك تعرفها بنفسك وتتجاهلها، تكابر في أمرها، فأي أحمق أنت؟

هز ديمتريو رأسه موافقاً، غدا أحمق في نظر نفسه، هو مضيّع ومعطّل عن مواجهة شؤونه ومباشرتها. وهذه الليلة، بالنسبة لعمره

كله، جديدة ورهيبة، ظنّه أن عالمه الداخلي جليّ، نقيّ، كغرفة مشمسة، كحديقة حسنة التنسيق،وما صدمه وأوقعه في هذا الاضطراب، أن هذا العالم مليء بالكهوف والسراديب،وأنه يجوس خلل ظلمات، فكيف حدث ولم يفطن إلى ذلك؟ كان عليه، في أعوامه الطوال، أن يفتح رأسه ويعرض خلاياه للشمس.

- حسناً - قال - أنا مستعدّ يا توأمي، فأخبرني أين هي العلّة في مخّي؟

- أنا لم أقل إن في رأسك علة.

- طيب، سرطان، ورم، تشوه.

- لا شيء من ذلك..

- وماذا هناك إذن؟

- انظر...

كانت على الجهة المقابلة من المخ، شفتان تبتسمان،فصاح ديمتريو: «يا الهي! ماذا أرى؟ ما ذنبي لديك؟ ولماذا إذن، أعذب نفسي؟» وباندفاعة مجنون، رفع قبضتيه وأهوى بهما على المرآة، ليتخلص من السخرية القاتلة في الوجه المقابل. عندئذ حدث ارتطام ضجّ له البيت كله، وتناثرت شظايا الزجاج مفرقعة على أرض الغرفة، وانبجس من أصابعه وراحتيه سائل مشع، ونفر من وجهه وعنقه وصدره وراح يتساقط قطرات على الطاولة والسرير والأرض، وأخذت القطرات تتفتح ابتسامات كالشموس الصغيرة، تشع فتبهر عينيه، وكلما حاول أن يطفئ إحداها، تناثر السائل فتفتحت عشرات الشموس من عشرات النقط، حتى حاصرته من

كل جهة، وتداخلت إذ تكاثرت، وتحولت إلى لهب شمسي غطى ما حوله، وأنشأ يتدفق كالماء في قاع سفينة تغرق،ويتصاعد ويغمر جسمه.

هتف ديمتريو بديمتريو:

- يا توأمي يا صديقي.. أنا احترق.. أغوص في اللهب واحترق، أنقذني.

وكعادته، قهقه الآخر ساخراً ولم يفعل لأجله شيئاً. عاد يصرخ به:

- أيها المسكين.. انفقت عمرك في طلب هذا الشيء، فلما صار لك خفته، وكذلك يفعل العاجزون، يحبون ويخافون الحب، يتكلمون على البركان، ويضعون أصابعهم في آذانهم إذ يحدث، ويشتهون العاصفة، فإذا اقتربت ناحوا كطيور الزمّج. أنت منافق مثل تاو، ذلك الذي كان يحب التنين، ويملأ بيته بصوره، فلما خرج التنين من الصورة، ولول واستغاث، واستنجد بخدمه لقتله.. بدمعك على أنين الكمان، كنت تسقي شجرتك، فلما اخضرّت خفت اخضرارها.. خفت هلاكك فيها.

- ولكنني أهلك.. أنا الآن أهلك..

- وستظل تهلك.. ستحترق كلك. هاك اللهب يحاصرك.. ها هو على رأسك، في الجانب الأيسر من صدرك، فوق كتفيك، تحت قدميك، يغمر قدميك، يغمر ساقيك.. اهرب.. اهرب..

صعد ديمتريو إلى السرير فتصاعد اللهب السائل وأغرق السرير.

قفز إلى المكتب فاشرأب اللهب إليه. لم تبق إلا الخزانة، فارتقى سطحها، وإذ غرقت بدورها تعلق بالثريا، وتطوحت قدماه كمشنوق، وتشنّجتا إلى أعلى، في محاولة مستميتة للنجاة، ولكن ألسنة اللهب أدركته، فأطلق صيحة استغاثة وهوى، ثم قفز، بكل قوته المتبقية، نحو الباب.. فتحه وفرّ هارباً، تتبعه طاسة رأسه، وقطرات الدم المتناثرة، والشمس المتفتحة، والسائل اللهبي. جعل يعدو وهي في أثره، وطفق يصيح، ويبكي، ويستجير، ولكن أحداً في الشارع، والمدينة والمدن الأخرى، لم يسمعه، ولم يأت لمساعدته.

ظل يعدو هكذا أياماً. وإذ كان على أحد المنعطفات، واجهته مرآة مما يوضع لتجنب اصطدام السيارات، فرأى صورته فيها، رأى ديمتريو الآخر ينظر إليه شامتاً ساخراً كعادته، فاندفع نحوه هاتفاً:

ـ أنقذني! أنقذني!

وضج الفضاء بقهقهة كالرعد، وسمع صوتاً كالنذير:

ـ أيها الأبله!.. أين المفر؟ وكيف تهرب بذاتك من ذاتك؟.. أنت تشتعل من الداخل، ومن الداخل تنطفئ.. عد إلى غرفتك، وأقلع عن المحاولة.. دع الابتسامة في صفحتك، فقد ارتسمت وانتهى الأمر. ارتسمت لأنك أردتها، وهي باقية لأنك تريدها، وخوفك منها لن يزيد إلا في تأججها.. أنت تصرخ بشفتيك: «لا يمكن» وتضمر في سرك: «يمكن» ولهذا فلن تتحول قناعتك إلى سلوك، كالذي كان، قبل أن تكون هي، قبل أن يكون اللقاء، ولن تعود ورقتك بيضاء، كما كانت قبل الكتابة عليها.

صوت . ٢

أنا هي المرأة ذات الابتسامة. اسمي راجعة، وهو اسم باهت، لو خُيِّرت لاخترت غيره. كنت أختار اسماً عصرياً، مزهراً، مرناً. لكن والدي أطلقه عليّ منذ ولادتي، فكان عليّ، كالآخرين، ان أحمل وزر غيري. ولكم فكرت: «لماذا؟ ألا يكفي أننا جئنا إلى هذه الدنيا بغير إرادتنا، وسنغادرها بغير إرادتنا، حتى نحمل اسماً لا يد لنا في اختياره؟» الناس يأتون وأنا أرجع. لو سماني والدي آتية كان المعنى مفهوماً. الكل يأتي، والكل يذهب، ودورة الحياة، في اكتمالها، تضع حداً لهذه اليقظة بين نومين، اليقظة التي هي سهاد ندعوه العمر، ثم ينسرب من بين أصابعنا، فإذا الأشياء، قبل البداية وبعد النهاية، عدم. غموض، غموض، غموض، غموض. ويعمد والدي بعد هذا كله، إلى زيادتها غموضاً، بهذا الاسم الذي اختاره لي. لقد أسماني راجعة، ماذا يعني ذلك؟ الرجوع، كما أعلم، لا يكون، ولا يمكن أن يكون، لأنه ما من أحد قطع طريق العمر، ورجع فيه إلى وراء.

والدي كان حكيماً. هذا لا شك فيه، كان يقرأ سقراط وأفلاطون وأرسطو، كان يفضل أرسطو. يقول: «فيه شيء من عصرنا» ولما سألته عن هذا الشيء قال: «المادة والحركة» لم يتسع لي الوقت، ولم يمتد به العمر، ليشرح لي اهمية المادة، وقيمة الحركة، كل ما قاله إن أرسطو تخطى بهما عصره. حسناً! أرسطو كان حكيماً، وأنت تقدر حكمته، فما هي الحكمة، يا والدي، باسم راجعة هذا؟ ولماذا أصررت، كما أخبرتني والدتي، على تسميتي به؟

قال والدي:

ـ لأنك، بالفعل، راجعة.

ـ راجعة من أين؟

ـ من المجهول.

ـ أي مجهول؟

ـ لو عرفناه ما كان مجهولاً...

ـ أنا لا أفهم..

ـ ستفهمين..

ـ متى؟

ـ حين تكبرين..

ـ الكبر يعني الفهم؟

ـ يعني إمكانية الفهم.

ـ والفهم؟

ـ يتوقف على التجربة.

ـ والتجربة؟

ـ تتوقف على المعاناة

ـ وهذه؟

ابتسم ومسد شعري بكفه الحانية. قال: «لو أخذنا بلعبة توالد الأسئلة لما انتهينا. كنا نوغل، شأن الذين يسألون عن الخلق، حتى نبلغ بدايته. نصل إلى السؤال الخطير: من؟ وبعد ذلك انتفاء الايمان.. لا.. لا أريدك سائلة ملحة في مساءلتها. التجربة أنواع، أعظمها..» توقف وأضاف مبتسماً: «لكنك ما تزالين صغيرة..».

كنت طُلَعة بطبعي. وكانت المسألة، التي غدت طبعاً فيّ، تُشجع من قبل والدي، لكنني لا أذكر أنني استطعْت، بعد كل حوار، أن أدّعي الفهم الكامل لما يريده. كان يقول أشياء تفوتني، تعلو، خاصة في ايمائيتها، عن مستواي، لذلك قلت، وقد أثار فضولي:

ـ لماذا، يا والدي، تومئُ ولا تفصح؟ أنت تعرف أنني لم أعد صغيرة إلى الحد الذي تخشى معه علي الافصاح. قل: ما هو أعظم أنواع التجربة؟

فكر والدي قليلاً، عاد يداعب شعري. نظر في عيني، لاح إشفاق في عينيه، وأمام إصراري، قال بنبرة حسم:

ـ الحب!

ارتعشت كأن شحنة كهربائية سرت في جسمي، كان قد قال لي إن الحب مرض لذيذ، لكنه لم يقل إنه مرض خطير، وأنه يشفق علي منه. ترى أمرض، أنا الأخرى، فأدخل أعظم تجارب حياتي؟ والدي يخيفني أحياناً. يتكلم بالرموز، يقول أشياء تخصني، لكنه لا يريد، لسبب أجهله، أن أفهم كل ما يخصني. يحتج بأني ما أزال صغيرة، مع أنني لست كذلك، أو لست كذلك إلى الحد الذي

يتصوره. اليوم، لأول مرة، أفصح، سمّى الشيء باسمه. قال: إنه الحب!

أيها الحب، أيها المرض اللذيذ، تعال.. إنني بانتظارك.

قلت لوالدي:

ـ ومتى يأتي الحب؟

ابتسم لسذاجتي وقال:

ـ الحب موجود..

ـ أين هو؟

ـ أمامك.. تعيشينه.. ألا تحبينني؟

ـ ولكنني لست مريضة.. كيف لا أمرض إذا كان هذا هو الحب؟

ـ الحب أنواع.. حب الوالدين نوع منه.. اللون الأبهى والأسمى، لكنه ليس الألذ ولا الأخطر..

ـ أريد، إذن، الألذ والأخطر..

ـ انتظري تجدي.. الحب الذي تريدينه لا يأتي بقرار.. إنه، كيف أقول، قضاء ينزل بالناس..

ـ عدتَ إلى إخفاقي؟.. لماذا إذا كان لذيذاً، يكون خطراً، أو يكون قضاء؟

ـ لأنه كذلك..

قالها وسكت. كنت أعرف، من تجاربي، أنه إذا سكت فقد أنهى

الحديث، أغلق بابه.. وما كنت أتوصل إلى معرفة ما إذا كان إنهاء الحديث عن تهرب أو عجز. والدي ليس عاجزاً. أراه يقرأ كثيراً. يقرأ في الفلسفة بغير انقطاع، والفلسفة اليونانية أحب الفلسفات إليه. يقول: «منها تحدّر كل شيء» لكنه يقرأ الفلاسفة العرب أيضاً، حدثني يوماً عن أبي سليمان المنطقي. قال إنه لم يؤلف كتباً، لكنه ساعد في تأليف الكتب. كان صاحب مجلس كلام، وقد تخرج فلاسفة كثر، وكتّاب كثر، من مجلسه: أبو حيان التوحيدي مثلاً. «ألهذا تحبه أنت؟» قال: «ربما» نقطة، وصمت! يخيل إلي أن والدي يود لو كان له، هو الآخر، مجلس من هذا النوع. هل لهذا يصر على الكلام معي، ويريد الكلام أن يكون حواراً؟ يعتبرني مجلسه؟ أنا لا أسيغ كلامه الجاف عن المنطق، لكن نظراته المتوسلة تحملني على الاصغاء. وإذ اتابعه، بكل حواسي، يبين الارتياح في وجهه. تراه يريد تعليمي، بصورة غير مباشرة، أشياء يعرف أن المباشرة تقتلها؟

اسمي الغريب. كلامه على الحب. قوله إنه مرض لذيذ. تأكيده أن الحب ألوان، وأن من ألوانه حب الناس. إنني أحبه. أحب الناس، لكنني لست مريضة؟ متى إذن أصبح مريضة؟ متى أحب؟ بودي أن أحب، لو أحب اليوم، غداً، بعده، وبأسرع ما يمكن، حتى أصل إلى التجربة بأسرع ما يمكن، وبعدها الفهم.. يقول إن التجربة فهم.. أنا أريد أن أفهم، لذلك أريد أن أجرب، أن أحب..

ذات يوم تقدّم رجل لخطوبتي. سألني والدي عما إذا كنت أقبل. ترك لي حرية الخيار، قال:

ـ قرري بنفسك.. الزواج لا بد منه..

ـ والحب؟

ـ هذا شيء آخر..

ـ أريد هذا الشيء الآخر...

ـ لكنه قد يتأخر..

ـ أنتــظره..

ـ وإذا لم يأت..

ـ كيف؟ يوجد إنسان لا يحب، أو لا يأتيه الحب؟

ـ الحب الكبير؟

ـ الحب الكبير، الحب الخطير كما تقول..

ـ لا أدري.. أنـا لست معك كـل يوم.. وفي مجتمعنـا هـذا.. اسمعي: المـرأة لم تتوصـل إلى حمايـة نفسها بعـد.. الـزواج، لهـذا السبب، ضروري..

ـ حتى دون حبّ؟

ـ كل راجعة، على مدى حياتها، تبحث عن راجع.. قد يكـون هـذا زوجها، وقـد يكـون حبيبهـا، الأفضـل، والأعـظم أن يكـون حبيبها.

ـ وما الفرق؟

ـ الجواب يحتاج إلى كتاب.. تعرفين أنني لا أكتب كتباً..

ـ لكن كلماتك تصلح عناوين للكتب..

ضحك:

ـ أسهل ما في الكتب عناوينها..

ـ أنا لن أتزوج دون حب..

ـ في هذه الحال قد يطول الانتظار..

ـ ما همّ؟

ـ لكنني بلغت الشيخوخة يا راجعة..

ـ لن أتزوج سوى راجع..

ـ راجع قد لا يأتي..

ـ كيف؟

ـ راجع ليس أي رجل..

ـ وأنا لا أريد أي رجل..

ـ راجع.... آه..

ـ زدني إيضـاحـاً..

ـ لا أملك أي ايضاح...

ـ لكنك تتكلم بألغاز..

ـ الحياة لغز..

ـ والموت؟

ـ لغز الألغاز..

ـ والمجهول؟

ـ المجهول هو العدم.. هذا تعبير اصطلاحي..

ـ قلت لي إن كل مجهول سيصير يوماً ما معلوماً..

ـ ذلك أن حدود الماضي ترجع بنا إلى وراء كثيراً..

صمت لحظة، وأضاف:

ـ تـرجع بنـا إلى وراء، فنكتشف التاريـخ، نمعن في اكتشافه.. لكن الزمن يسير بنا إلى أمام.. وهذا هو المهم..

ـ إلى أين؟

ـ إلى ما لا نهاية..

ـ ونحن؟

- نمضي مع الزمن.. الأفضل أن نمضي مع الزمن.. حذار من التخلف عنه..

- معميات.. ما أكاد أفهم حتى تستغلق علي الأمور.. أنت لا تريد أن تعذبني، أليس كذلك؟

- طبعاً! لكنني أريد أن أشرح نفسي.. ليس لدي سواك من أشرح له نفسي..

- اشرح لي إذن، لماذا أسميتني راجعة.. ومن هو راجع؟

عدنا إلى هذه النغمة؟ راجعة اسم.. اسم لا أكثر.. وراجع اسم، اسم لا أكثر.. هل فهمت؟

- لم أفهم.. أمس قلت غير ذلك.. قلت ما لم أفهمه، ما لا يفهم.. وتركت مصيري للقدر..

- لا أحد يترك مصيره للقدر إلا إذا كان عاجزاً..

- ولكنه القدر..

- تقابله الإرادة.. اعطني إرادة أعطك قدراً..

- لم أفهم أيضاً..

ربت على كتفي، كان محاصراً، وربت على كتفي، قال لي بصوت هادئ، عميق، أرادة نافذاً، كأنما لأتذكره كل حياتي:

- ستفهمين كل شيء إذا احسنت التفكير.. ستعرفين الحقائق إذا كان لك الوعي. المجهول لن يبقى مجهولاً.. الأيام، ونحن، والمعرفة، قادرون على جلاء المبهم.. كل شيء سيصير في الضوء. السراج لا يوضع تحت مكيال.. الشمعة خلقت لتنير، لذلك توضع في مكان عال. الأيام تعلّم يا راجعة..

- الأيام تشقي..

- وهي نفسها تسعد..

- لكن الشقاء يغلف الأيام.. أنت قلت ذلك..

- يغلف أيامنا.. ومن يدري، لعله كذلك كي يعلمنا.. إننا بحاجة إلى علم، ومزيد من العلم..

- لا أريد العلم مع الشقاء..

- هذا ليس بيدك.. الجهل شقاء بدوره، لكنه شقاء قاتل..

- أنا لا أهتم بالعلم أو بالجهل.. لا أهتم بالزمن وأبعاده، وبالمستقبل وطريقة توالده... بل إنني أضيق بكتبك الصفراء هذه، وبالاسم الذي أطلقته علي، وبأرسطو والمادة والحركة.. وبهذا البيت الذي هو وكر لأفكار لا أفقه منها شيئاً..

هذا الحوار، بيني وبين والدي، تكرر، تكرر، تكرر، تكرر، ماتت أمي وأنا صغيرة. والدي لم يتزوج بعدها، لم يرزق طفلاً غيري، هو الذي توفر على تربيتي، وعندما بلغت السابعة أرسلني إلى المدرسة، وبعد المدرسة أغرمت بالموسيقى، فقال لي:

- حسناً! سأدعو لك موسيقياً تتلمذين عليه.

جاءني بموسيقي، وعنه أخذت الموسيقى. كان الكمان آلتي المفضلة، وأتى اليوم الذي أتقنت فيه العزف. فقال والدي: «كفى!»، ولفتني إلى الكتب، باذلاً جهده ليشرح لي ما فيها. ولما بلغ الشيخوخة، وتقدم واصل الدلجي طالباً يدي للزواج، وافقت، وسألت والدي:

- هل هذا هو راجع؟

رفع كتفيه بهزة خفيفة وقال:

- من يدري؟

فكرت: «لماذا، يا والدي، لا تدري؟ ثم لماذا، من قسمات وجهك، من إشارات يديك، من نبرة صوتك المتموج بالوهن والرغبة في التأثير، تشعرني أنك تدري ولا تميل إلى الجهر بما تدري؟ هل هذا لأنه سر؟ لأنه خوف؟ وهل، وأنت الذي تعاملت مع الرموز، حتى بدوت لي رمزاً، لا ترضى أن تفارق طبيعتك، فتقول الأشياء بتحديد؟ أي عالم هذا الذي أولعت به، فأنفقت في سبيل أن تحيط به شبابك وإرثك من والديك؟ وبماذا أحطت؟.. أبو سليمان المنطقي مات.. أنت لم تسع حتى أن تكونه. وأرسطو لم يزد على أن رسّخ فيك الإيمان بالمادة والحركة.. المادة أصل تقول. الروح مشاعر، جملة مشاعر، مركزها الجهاز العصبي. وهذا جهاز مادي، والروح تجلياتها، وهذا مثل، هذا قياس، وفي ضوئه يمكن أن نرى إلى الأشياء وندركها.. ولكم تمنيت، أنا ابنتك الوحيدة، أن أرى، في حياتك العملية، مواقف تفسيرية تطبيقية، هذه الفكرة.. ذلك أنه لا يكفي، ولا يعنيني إن كفى، أن تقول إن عليك التفكير، وأنك لا تحسن غيره، وأن الحياة، في الصراع الدائر، تزداد فهماً لتفكيرك، وعملاً به، وأن هذا ليس فكرك وحده، ولم يعد فكر الفلاسفة وحده، بل غدا فكر أفضل الرجال والنساء في عصرنا. إنني أعرف فرحتك بجريدة صغيرة، تأتيك حيية كالمرأة التي تحترم نفسها، بغير ألوان، بغير إعلانات ولا تزاويق، وأحسب أن لك، في بعض الليالي، زيارات واستقبالات خاصة، لمجموعة تقول إنها «طيبة كخبز القمح» لكنك، عدا ذلك، لا تكتب، لا تنشر، لا تدعو الناس لفهم مقولة «المادة والحركة» التي تؤمن بها.. أنا لا أبخسك أشياءك، أنت، في بعض لياليك، وعندما تنتهي من ذرع غرفة مكتبك طولاً وعرضاً، تناديني، تبدو

وكأنك تحتاج لمن تقول له ما في صدرك، ولأنه ليس ثمة غيري، فأنت تشرع في كلام غريب، تحاول، جهدَ طاقتك، أن تجعله مفهوماً.

وحين تدلى الضجر عليّ من السقف، ذات ليلة، وارتسم وجوهاً صينية مقنعة على الجدران وزجاج النوافذ، قلت لي، وكلك حنان: «إن الحياة عجوز مضجرة بطبعها، وأنه لا مناص، فالمرء، إذا اكتهل، غدت حركاته، أثقل واسمج، وأن هذا لن يدوم، وإنني، في شهر، في سنة، في سنتين واجدة من يؤنسني، ويدخل البهجة إلى قلبي» فلما اجبتك، نافدة الصبر، أن هذا الشهر لن يأتي، وهذه السنة في عالم الغيب، رددت بأن ثقل الزمن هو الذي يبهظني، لأنني، في فراغ عواطفي، وفي انعدام قضية تشغلني، أرزح تحت وطأة هذا الزمن، أحسبه، أعدّ نهاراته ولياليه «لكن الحياة، قلت، تمضي، والزمن يسيل، وبأسرع مما نتصوّر، وأن من حظ البشرية أن ذلك كذلك، وأنه لا ثبات، ولا شيء ثابت، وأن العالم، منذ نشوئه، قبل مئات ملايين السنين، دار به الزمن وما زال، وانتقل به من طور إلى طور، ومن نظام إلى نظام، وأن ما لا يحصى من السبارتاكوسيين قد دفعوا حياتهم ثمناً للتسريع بالنقلة بين القديم والجديد، الجديد الذي يغدو قديماً بدوره، مفسحاً المجال، لجديد آخر، ثم آخر، في انتقالات لا تنتهي، وأن الإنسان هو الذي، بعمله، يدفع ويسرع، في النقلة، بين الجديد والجديد الذي يليه».

ثم أنا شاهدة، إنك في وحدتك، لم تكن وحيداً، كنت مع كتبك، وقلت لي، وأنت تمسح على رأسي، إن الكتاب أفضل صاحب، وأعظم معلم في هذا الوجود، وإنك، بفضله، تعيش مع

التاريخ، وتتوصل، بسعادة، إلى وصل ماضيه بحاضره، واستشفاف الآتي، هذا الذي هو أفضل دائماً. لكن هذا لم يمنعك، يوم وضعت جارتنا طفلها عندنا، أن تحتفي به كأنك تحتفي بطفولتك، وكم كان عجبي كبيراً، حين عدت من المطبخ، بعد غيبة قصيرة فيه لإعداد الطعام، ورأيتك تدب على أربع، والطفل على ظهرك. يومها أحببتك، أحببتك، وكدت أبكي، وأنا أراك على هذه السعادة. بغير منطق، ولا فلسفة، برغم أنك أكدت ضاحكاً، أن فهم الطفولة، والاهتمام بها، فلسفة بذاتها.

وجاء اليوم الذي زوجتني فيه. باركتني. قبّلت جبيني. كففت دموعي وأنا أفارقك، وقلت لي:

ـ هذه سنة الحياة..

بكيت. كان الدمع إفراز ألم. لم يكن دمعي. كان دمعك يجري من مآقي. كنت أعرف أن في قلبك ينفر جرح. كان جرحاً وحشياً بغير دم. كان أصم، أبكم، كاتماً لمعاناته، فيه من أيوب جزء، وفيه من قصة معاناته أجزاء، لكنك تحاملت. «هذه سنة الحياة». أيها الأب، يا أبي، يا فهيم المتبحّر، طوبى لجرحك الأخرس. أنا ابنتك راجعة، كنت أفهم ما وراء المظهر المتماسك، ما فوق وتحت الشجرة التي أوقفت، بإرادة أعرفها عنك، عصف الريح أن يلعب بغصونها التي ذبلت. أنت، في شبابك الغارب، كانت لك غصون خضر، مليحة، التوت مع الكهولة. صارت نهباً للريح، لكنك، يوم الوداع، أمرت الريح، يا سيد الريح، أن تكف عن العصف بغصونك التي لواها العمر، فائتمرت الريح.. سليمان! يا حكيم هذا الزمن، لقد انحنيت، بكل قامتك الطويلة، المهيبة، وشعرك

الأبيض، كضوء القمر في ليلة صيف، أمام سنّة الحياة، لأنك كنت تخشى، وأنت تسرع لركوب عربة قطار يسافر بك في رحلة لا عودة بعدها، أن تتركني وحيدة على رصيف المحطة. لم تنشد: «زوروني كل سنة مرة» ربما لم ترد، أو لا تحسن الإنشاد، ولكني قرأت في الأسودين من عينيك، أغنية سيد درويش التي تحبها. ناديتني، ببوح شوق معذب، ألا أهجرك. قررت من جانبي ألا أفعل. أن أزورك كل يوم، ولا أدع الكتب الصفراء تغتالك بحروفها الصدئة، المسنونة، في وحدة أصابعها المعقوفة خناجر وعملها اغتيال من يستسلم، لكن وحدتك كانت قدراً، كما كانت وفاة والدتي قدراً، وأغنيتك التي ماتت على شفتيك، كانت للضياع لا للتحقق، فسنة الحياة، هذه التي أذعنت لها، أسلمتني لرجل لف أصابعه الشيطانية على شعري، لمجرد أنه، بحكم مؤسسة الزواج الملعونة، قد صار مالكي. ولست أشك، بعد هذا العمر، وبعد أن وضعت حقيبتك، غب زواجي، في قطار العمر المسافر، ورحلت، أنك كنت تعرف أن واصل الدلجي، الزوج الذي تقدم لي، وارتضيته أنا، وباركت أنت زواجنا على حسرة، ليس راجع الذي حدثتني عنه، وأن هذا الراجع قد يأتي، يوماً، ويدق على صدري، لكن كيف أفتح له صدراً أغلقه مفتاح الزواج؟ كانت هذه هي المسألة التي بهظتك بعد زواجي، وهذا هو السبب في أنك كنت تسأل: «هل أنت سعيدة يا راجعة؟» ولم يكن لي أن أجيب في الشهور الأولى لزواجي، لكن فراستك اخترقت المجهول من مستقبلي، فأدركت أن واصل الدلجي رجل نفعي، وأنه خدعنا كلينا، لكن عزاءك، وأنت في مقرض الندم، كان يقوم على أن المنتظر الموعود سيأتي.. أن راجع سيأتي، وأنني سأعرف الحب، والفرح، والخشية من حبي ومن فرحي، لأن

الآتي لن يجدني في انتظاره كما كان يتوقع، أو كما كنت أريد، وأن علينا، هو وأنا، أن نقطع خيوطاً من أمراس تلتف حول عنقينا، وأن نتمرد على مؤسسة الزواج، وعلى المجتمع الذي أقامها وألزمنا بها، وكانت له في إقامتها مبررات، لن تلغيها إلا مبررات مجتمع آخر، قادم، أنت الذي بشرتني به طوال حياتي.

لقد خفت دائماً علي.. هل كنت، في المضمر من الغيب، فطنةً أو حدساً، تعرف أنه لن يكون لك أولاد غيري؟ منذ وعيت الوجود، وأنا أحس أنك تعاملني على أنني ولدك الوحيد. وربما، يا والدي، كنت تخاف علي لذلك، أو كنت، في الشوق المستحيل، تتمنى أن أبقى صغيرة، وأنت تقول لأمي: «لماذ يكبر الصغار؟ ليتهم يبقون صغاراً»(ثم تستدرك): في هذا الكلام أنانية منا، نحن الكبار. إن رغبتنا في أن يظل الصغار صغاراً تعبر عن رغبة ذاتية مضمرة، في أن ننسى جميعاً أعمارنا، ونبقى حيث نحن، فلا هم يكبرون، ولا نحن نشيخ» وكانت أمي التي لا ترغب، أو لا تقوى، على مجاراتك في هذه التأملات، تقول لك: «راجعة ستظل حلوة، حبيبة، زهرة البيت، في كل المراحل» فتهز رأسك من سلب، وأسف، وتجيب: «إنما زهور البيت هم الصغار».

لكنك، في تعاملك معي، كنت تضمر غير ما تقول، أحاديثك الفكرية، وأنا في الثانية عشرة من عمري، وفي الصفوف الإعدادية، كانت تتوجه إلي كأنها تستبق عمر الطفولة. وحتى عندما كنت تجلسني على ركبتيك، ما كنت تقص علي حكاية، كأنما الخرافة، هذه التي كنت أحبها، في حكايات أمي، كانت مجهولة، أو

منسية عندك، فأنت تخاطبني بخطاب العقل، وأنا، وقتئذ، كنت أرغب في خطاب الخيال. هل هذا لأنني كنت وحيدتك، وأنيستك، وجليستك حين يفرغ مجلسك من الزوار؟

ومن حسن الحظ أنني تمردت. طفولتي تمردت، فكنت أنساب من بين يديك وأهرع إلى لداتي، إلى أطفال الحي، إلى رفيقات المدرسة، وكنت قادراً على تفهم هذا التمرد، وربما سررت به، لأنك كنت تقول لأمي: «عند راجعة طاقة تريد تصريفها» وبعد ذلك، درجت على أن تأتيني بالألعاب، ومرة، على ما أذكر، سحبت أمي من المطبخ، أرغمتها على ترك تقشير البصل، كي نلعب الكرة نحن الثلاثة. في هذه الأوقات كنت أحبك جداً، وأراك أقرب إلي، وأعز عندي، لأنك تشعرني بأنك، على تقدمك في السن، ما يزال فيك شيء من الطفولة، لكن هذه كانت في أوقات نادرة، فأنت مشغول عني بكتبك، بمجادلاتك، وتميل إلى أن تعلمني الحوار، والخطابة وتقول لي: «تمرّني على الإلقاء أمام المرآة، طالما أنك، يا راجعة تميلين إلى التجويد، والنظم، والإنشاد، فلعلك، في مقبل العمر، صرت محامية، وها أنا، أصبح موسيقية، وأتزوج رجل أعمال، ولا يبقى من كل تأثيراتك علي سوى حب الجدل، واحترام الحقيقة.

من كان يظن، أن العفريتة الصغيرة، المحرضة في المدرسة على التظاهر، الخطيبة في تظاهرات البنات، محرجة معلميها بالحوار والنقاش، تنتهي إلى زواج فيه الرقم سيد الحديث، وفيه المال سيد الوجاهة، وفيه الركض وراءه سباق هو الرياضة اليومية الممارسة والمسموح بها؟

إن زوجي عاشق ملايين.. وعاشق كلام على الملايين، ومن

الصعب، بالنسبة إليه، أن يحلو حديث في شأن آخر.. أما أنا فما زال علي أن أقف أمام المرآة وأن أخاطب نفسي، بدل أن أخاطب نفوس الآخرين.

صوت ٢.

ليس كل ما تقوله راجعة صحيحاً.. إنني، في الدفاع عن نفسي، أدافع عن الواقع، وإليكم الحقيقة:

جاء المليون الأول من حيث لا يجب أن يسأل أحد، وماذا للناس لديّ حتى يسألوني؟ راجعة نفسها لا تملك مثل هذا الحق، ولو ملكته لصادرته، فما يحسن، في التجارة، هو الكتمان، لا لأن ثمة ما أواخذ عليه، بل لأن روح العمل، مقتضياته، ، تتطلب، من التاجر، أن يبقي دفاتره بعيدة عن الأنظار. ومع أني أقرأ في عيني راجعة شيئاً من قلق، وشيئاً من تساؤل، فإن قلقها وتساؤلها غير مبررين، وغير مبررة نظرتها المتعالية هذه التي تصدر عن عينين شبه مغتمضتين أبداً، كأن فيهما عتباً على الدنيا. كان الأجدر أن أعتب أنا، فالنعيم الذي تتقلب فيه نسج يدي، ويدي هي ذاتي، وقد كانت جديرة بالتقبيل، وأنا أقبلها حين تأتي النعمة، أفعل ذلك شاكراً،

كما يفعل الآخرون، وكما يفتتح، الأوربيون أنفسهم، وجبة طعامهم بصلاة شكر قصيرة.

أنا لست بروتستانتياً حتى أفعل ذلك، أنا أورثوذكسي مستقيم الرأي. والدي، نعيم الدلجي، كان مستقيماً أيضاً، لكنه يقول لي دائماً: «يا واصل لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت.. هذا كلام من التوراة. أترجمه، أنا أبوك، بقدر فهمي، أعني أعطي للصلاة وقتها، وللتجارة وقتها. مدبغة الجلود الصغيرة، أدرتها بهذا الفهم، وبه نجحت، برغم الطريقة البدائية، أوائل الحرب العالمية الثانية التي دبغت بها الجلود». لا تظنّوا والدي صناعياً إنه حرفيّ لا أكثر. كان يدبغ الجلود ويبيعها، ولديه ثلاثة عمّال. ولم يكن، وقتذاك، قانون عمل ولا ما يحزنون، كان يشتغل، تقريباً مع عماله يداً بيد، وفي آخر الأسبوع، يضع في أكفهم ما تيسّر، خالي البال مما يرتبه القانون، الذي جاء فيما بعد، غبّ الاستقلال، من تحديد ساعات العمل، والأجور، والعطلة الرسمية، والتعويضات أو ما صاروا يسمّونه، بعد ذلك، التأمينات الاجتماعية. لهذا، يمضي الآن وقته، مترحّماً على أيام زمان. إن أيام زمان تعني، بالنسبة إليه، الشباب، وتعني طلاقة اليد من أغلالها، هذه التي صارت، من مستلزمات النقابة، ومن قرارات اللجنة المختلطة للأجور، وما لست أدري من تفرعات، ضاق بها ذرعاً، فأغلق المدبغة، وأنشأ معملاً صغيراً للنسيج، يشتغل فيه بضعة عمال، يسرّحون قبل نهاية الشهور الثلاثة، ثم يعادون إلى العمل وبذلك لا يترتب لهم حق ولا تعويض.

ما عدا هذا، كان والدي رجل تقوى، وبنفس القدر رجل كأس

وفخذ. كان يصلي، ويسكر، ويزني، ويقامر، بترتيب ليس أدق منه ترتيب توالج الفصول. فنحن لا نحس به كيف يقسم وقته، لتستوعب كل هذه المتع، ولا أذكر أنني رأيته متعتعاً، وإن كنت قد رأيته منتشياً، يترنم بأغنيته المفضلة: «عاليانا يانا من غرامهم يانا» وكان يؤثر، من مقاطع هذه الأغنية، ذاك الذي يقول: «آه يا قميص النوم لا تلطم بزو/ تفاح شامي والهوى بيهزو/ يا سعد مين لو محبوب وبعزو/ على السرير وفقّش الرماني». وأعترف، أنا ابنه واصل الدلجي، أن تفقيش الرمان على السرير، أيقظ غرائزي الجنسية في وقت مبكر، وأحسب أنه فعل ذلك بإخوتي وأخواتي.

المهم أن والدي كان ذا دخل طيّب من معمله. أنفق منه بسخاء على تربيتنا وتعليمنا، ولما كبرت، أنا ابنه البكر، اقتادني إلى المعمل، في أيام العطل المدرسية، كي أبدأ تمريني على إدارة العمل تحت إشرافه. وكانت وصيته لي، وهي غير مكتوبة طبعاً، هي التالية: «لا تأمن للعمال ولو قالوا نزلنا من السماء»، وصارحني أنها مأخوذة من بيت في مجراوية الزير سالم، وأنه بدل كلمة النساء بكلمة العمال، وكان، في طبعه، لا يأمن للصنفين.

هكذا تيسّر لي، بسهولة الماء الجاري، أن أجيد حرفتين معاً: الصناعة والتجارة، وأن أشبع نفسي من هوايتين: كرة القدم والخمرة، وأن أبدأ، منذ نبت شعر إبطي، بالبحث عن «الرمان» وتفقيشه على أي سرير.

لقد كانت الصراحة من طبعي. ولم يكن هذا الطبع مسيجاً بأية محرمات. ولكنني لم أتبذّل، ولم أبذر، وحرصت، في كل خطوة، على

اتباع نصيحة والدي في «جمع الحجارة وتفريقها» غير أن العمل حتى في أفضل مواسمه، كان يدر قليلاً، وكنا، لذلك، في الميسورين فقط، نملك معملاً صغيراً، وبيتاً، وبعض عقارات صغيرة، وهذا كل شيء. فالغنى هذه الأيام، لم يكن معروفاً فيما قبلها، وخاصة الغنى في السنوات الأخيرة.

إن هذه السنوات، الدائمة إن شاء الله، هي سنوات ذهبية، اغتنى فيها كثرون، كانوا نركة فصاروا في المعروفين، كانوا لا يملكون شيئاً فصارت أملاكهم أوسع من أن تحد. لذلك، إذا كان لا بد من مساءلة عن الإثراء فهم أحق بها مني، ومع هذا لا أحد يقول لهم كلمة. وأنا لست ضد ذلك. بأي حق نقول لإنسان من أين لك هذا؟ هذه تهمة. مجرد أن تسأل فأنت تتهم، ومجرد أن تتهم فأنت تنوي الإدانة، ولو طبقنا هذه القاعدة الاتهامية، فمن ذا الذي يتبقى فوق الغربال؟ كل إنسان ارتكب، على نحو ما، خطيئة ما، ولو قدر لنا أن نقرأ في قلوب الناس خطاياهم لأثرنا فضائح لا نهاية لها، ولكان علينا أن نوجه اتهامات بلا عدد، وأحكاماً بلا عدد، فمن لم تزنِ يده زنت عينه، أو لسانه، أو سريرته، ومن لم يغشّ في التجارة غشّ في الوظيفة، أو في المهنة، أو في العاطفة، وكله غش، وربما كان غش التاجر أهونها، لأنه يتناول المادة لا الروح.

كل هذه الأفكار يجب أن تُقال، أن تُعرف، أن يكتبها حملة الأقلام في كتبهم. لكن هؤلاء، لا يرون إلا التجار. لا يرون إلا الرأسماليين، كأنما الرأسمال جريمة، مع أنه، في اقتصاد العالم، يُعطى الدور الأول، والفضل الأول، وتعرف قيمته، ويكرم أصحابه، وبلغ الأمر، في الاهتمام الذي أثاره، أن ماركس، وهو

من كبار المفكرين، كتب له كتاباً في مجلدات، كتاباً سمعت عنه ولم أقرأه، وليس لدي الوقت لقراءته، ويودي أن أفعل ذلك يوماً، ولو استطعت لنقدته، فهو، كما بلغني، ينفس على الرأسمالي ماله، وهذه ضغينة، وصاحبها ناشر ضغائن، مثير فتن، وينبغي أن يحاكم، لأنه يهز القناعات المترسخة في عقول الناس، ويعكر صفو الانسجام القائم بين الطبقات، ويحل محل هذا الوئام الانساني، صراعاً لاإنسانياً، عنيفاً، دامياً، بلغ من شأنه أن ألقى شعوباً برمتها في برك من الدماء.

لكن المؤسف أن عمي، والد راجعة، فهيم المتبحر، ليس من رأيي في هذه المسائل، كنت وأنا أجالسه، أمتلئ غيظاً، أكاد أصرخ في وجهه: «كفى! ما تقوله كفر، فالله خلق الناس درجات ولو شاء، سبحانه، لخلقهم درجة واحدة، إنما لحكمة جعل الرزق على قدر السعي، والذين يسعون وينالون، ينبغي أن يتمتعوا بما نالوا في جو من الهدوء، من الطمأنينة، إذا هم أدّوا ما عليهم من ضرائب، ولم يغلّوا أيديهم إلى أعناقهم، ولم يبسطوها بسطاً كاملاً أيضاً.» لكن اندفاعي كانت توقفه ابتسامة ساخرة على شفتيه، وددت أن أمسحها مسحاً، مرة واحدة وإلى الأبد. لماذا يحسبنا بعضهم، فهيم المتبحر مثلاً، في الأغبياء، ولماذا، في اتهام الغباوة هذا، لا يزيد عن ابتسامة ساخرة؟ أفضل، بدل مثل هذه الابتسامة، شتيمة، ضربة، عراكاً، لكن الذين لا يوافقون على ما تقوله، يصرون على نقضه بابتسامة، وأنت لا تبالي، أو كان يجب ألا تبالي، لكن الابتسامة المسمومة تنشب، كمخالب، في لحمك، وعندئذ إما أن تسكت، وتغادر أو تخرج عن طورك، وتقول ما لا تريد.

لم أكن استطيع المغادرة، وما كان، هو، يطيل اجتماعاته بي. سألني يوماً: «تقول درست في الجامعة الأمريكية ببيروت؟» قلت: «لم أكمل. . . درست التجارة سنتين فقط» قال: «لم يذهبا سدى»، ترك جملته ناقصة، مبتورة، غامضة، فما عرفت ما يريد. قال عبارته المبهمة وانسحب إلى مكتبه، وصرت أعرف، كلما التقيته، أنه، حين لا يرتاح إلى شيء، ينسحب إلى مكتبه، دون أن يدخل في نقاش معي، حتى كان يثيرني ويضطرني إلى الصياح في وجهه، «مالك؟ ألا أستحق النقاش، حتى تلوي بوزك في وجهي وتمضي؟». . لكن راجعة، خطيبتي، نفت شكوكي، أو أرادت، آنذاك. . . أن تزيلها كي لا ينشب خصام بيننا، ومن حسن الحظ أن الخطبة لم تدم سوى شهور، تزوجنا بعدها، وأقللت من التردد على عمي، وكابر هو، فلم يزرني إلا مرة واحدة، حين جاء لعيادة ابنته المريضة.

أفكر في حكمة الدهر: كيف يقرّب ما هو بعيد، ويُبعد ما هو قريب؟ كيف يُجمع ناس، من تفكير مختلف، في علاقات مختلفة؟ وما هو السر، في حياتنا هذه، الذي يدفع أحدنا إلى الآخر، فيكون نسب، لو فكرت فيه، لأنكرته، لكنك انسقت إليه، مُسَيَّراً غير مخير؟ يقال: «مكتوب على الجبين» أميل إلى هذه الحكمة. يبدو أنه كان مكتوباً على جبيني أن أتعرف إلى فهيم المتبحر، في تلك الليلة من ليالي آذار، في النادي العربي، حين كنا نحضر أمسية، وكان صديقي ربيع يتحدث إليه، وإلى ابنته، فما أن رآني حتى رغب أن يتعرف أحدنا إلى الآخر، قائلاً في مودة: «عجيب يا واصل، ألم تسبق لك معرفة بالأستاذ فهيم. . . إنه أستاذنا، ومجلسه العلمي لا يُفوَّت» وقلت مأخوذاً بإكليل الشعر الأبيض على رأسه، والملاحة في

وجهه: «يسرني هذا التعارف» ثم استدركت، كأنما أعتذر عن بعدي وجهلي بالثقافة، والمثقفين، وانقطاعي عن الحياة الاجتماعية والثقافية كليهما: «أنا مقصر يا سيدي، اعترف بذلك. معملي الصغير، أنا صاحبه ومديره في آن. أعمل بيدي أحياناً. . أرجوك، لا تحسبني في الصناعيين. . ما أنا إلا مالك لورشة نسيج صغيرة، فيها بضعة عمال، ومع هذا فإن المعمل يستغرق وقتي كله. . سقى الله تلك الأيام، في الجامعة الأمريكية، يوم كنا نشتعل حماسة لمثل هذه الأمسيات، وكنت أشترك في تحرير مجلة الكلية».

قلت العبارة الأخيرة وأنا أتوجه بالكلام إلى ابنته. لا أدري لماذا توجهت إليها، إليها دون سائر من ضمّت الحلقة، وجدتني أندفع لاكتسب تقديراً في عينيها، بعيداً عن الغزل والنسيج وشؤونهما. . ذلك أن الملاحة التي ورثتها عن أبيها، وذلك الشعر الأسود والعينان طويلتا الأهداب، والجبين الناصع، شدني إليها. وقالت هي ببساطة: «خسارة يا سيد واصل، الفن، حين يقيض لنا أن نستمتع به، يعطي نشاطاً مضاعفاً في العمل» وقال ربيع: «الآنسة راجعة عازفة ماهرة على الكمان. . وقد حضرت لها أمسية. . «فوجدتني أضيف: «جميل. . جميل والله. . الكمان يأسرني. . . . باغانيني؟» سألتني: «تعرف باغانيني؟» ما كنت أعرف سوى اسمه، لكنها لم تطلب تفصيلات مني، وهذا ما أنقذني من ورطة. . اكتفت بابتسامة شفّت عن أسنان بيض، جميلة، وراح ألق يتجلى في ارتسامة ساحرة على شفتيها، قالت: «آه! باغانيني. . لقد قرأت كثيراً عنه، وأنت؟» لم أشأ الكذب أو ادعاء شيء ليس لي، لذلك أجبت: «قرأت عنه كتاباً صغيراً. . فتنتني سيرته الغريبة. . الغرابة تفتنني دائماً. . سير

المشاهير في التاريخ تشعل حماستي . . » فقال والدها ضاحكاً: «هذا يسمح بالاستنتاج انك ترغب في الشهرة . . ترغب في سيرة كهذه أليس كذلك؟» فقلت وقد ضبطت متلبساً: «حلمت يوماً أن أكون . . ولكن أنظر يا سيّدي، ما أنا إلاّ صاحب معمل صغير للنسيج» فأجابني: «لا بأس . . حتى في النسيج وأموره هناك مشاهير . هناك ملوك» في التطور العاصف للصناعة، صار لكل شيء ملك. آمل ألا تخيب في الوصول إلى لقب ملك النسيج، ولو على نطاق بلد صغير كبلدنا».

ماذا كان يقصد بذلك؟ إنه لا يقرأ الغيب على كل حال، وهذه الإشارة إلى لقب ملك النسيج كشفت جوهر طموحي، عرّتني كما يقال. لكم عريي، في هذا المقام، كان يطيب لي. هذه هي حقيقتي، أريد الشهرة، أسعى إليها، ولو كان، في بلد كسورية، من الممكن أن يصبح صاحب مصنع نسيج ملكاً، لتمنيت أن أكونه. غير أن الدنيا مراتب، فإذا لم أكن ملكاً للنسيج فلا أقل من أن أكون وزيراً، أميراً، مالكاً كبيراً، لذلك قلت للأستاذ فهيم: «إذا كانت القناعة كنزاً لا يفنى، فإن بعض الطموح حق . . . على الإنسان أن يكون طموحاً، أليس كذلك يا سيدي؟» فابتسم لي وهو يروزني وقال: «الطموح لا ينقصك على كل حال يا سيد واصل» وربت على كتفي، من تشجيع أو استحسان، لست أدري، كل ما أعرفه، وأذكره، أن وقفة التعارف تلك، لا تنسى. كان فاتحة التعارف، فاتحة شيء بهي كالموسيقى. كانت فاتحة موسيقية من نوع ما، وقد تعلقت بصديقي ربيع ونحن نخرج من النادي، وسألته، بإلحاح قدري، أن يحدثني عن السيد فهيم وابنته، وكنت، في قرارتي، اريد أن استفهم عن ابنته خاصة، ولكم كان سروري

كبيراً حين علمت أنها غير متزوجة، وأنها ذات سمعة جيدة وصيت بعيد في الرزانة، والدماثة، وحب الموسيقى، وحسن التربية، وأنها وحيدة والدها، يتيمة الأم، وأن حياة فهيم المتبحر وقف على ابنته راجعة . . هذا الاسم الغريب، الفريد، الذي لم أسمع بمثله من قبل. طرحت، فوراً، على نفسي هذا السؤال: «يمكن هذا؟ أنا واصل الدلجي، وبعد هذا الانتظار الطويل، أتوفق بزوجة مثلها؟» لقد استهواني، في الحقيقة جسدها. تظاهرت، باهتمام مبالغ فيه، بأنني معجب بذكائها، بموهبتها الموسيقية، بكونها ابنة فهيم المتبحر، لكنني، في الواقع، كنت مستثاراً بعنقها. كان عنقاً جميلاً، وكان ينبئ دون أن يكشف، عن مفاتن كتفيها، وأنا إنسان مغرم بالعنق، بالصدر، بالكتفين، فكيف بامرأة على قوام متسق، طويل، رائع، وتهذيب شديد، وابتسامة ماسية كالتي رأيتها؟ طلبت من صديقي أن يجمع لي أكبر قدر ممكن من أخبار هذه العائلة الصغيرة، العائلة النادرة، المؤلفة من شخصين، وعلى هذا القدر من الانسجام، ومن الهواية العلمية والثقافية. لقد خشيت، نعم خشيت، أن يحول بيني وبين راجعة أنني تاجر، وأدير معملاً للنسيج، لا علاقة له بالثقافة، ولا صلة له بالموسيقى، وأن راجعة، في عمرها الذي قدرته بخمسة وعشرين عاماً، بينما أنا في الخامسة والثلاثين، قد ترفض زواجاً لا يستند إلى حب، ولا إلى توافق فكري، أو هواية مشتركة. بتّ ليلتي مسهداً، بت ليلة عاشق، أنا الذي عرف الحب، عرف الجنس، لكنه لم يعرف العشق . . ولقد أفادتني تلك الليلة الأرقة. أفادتني كثيراً، إذ توصلت، قبل أن يلم الرقاد بجفني، إلى فكرة نيّرة، مؤداها أن عليّ، إذا كنت راغباً حقاً، وأنا كذلك، بالزواج من راجعة، أن أستميل قلبها. لقد هداني

حدسي العملي، إلى أن رجلاً عالماً مثل فهيم المتبحر، يحترم إرادة ابنته، وحيدته، وأنه لا يستطيع، أو لا يريد إذا استطاع، أن يملي عليها رغبته، ناهيك بقراره في شأن زواجها. تظاهري بحب الموسيقى، قد يكون سبيلي إلى رضاها، ثم عليّ، كياسة، أن أطلب، أول ما أطلبه، سماع عزفها، عليّ، مهما يكن جهلي بالموسيقى، خاصة الكلاسيكية منها، أن أبدي الإعجاب، بل الإعجاب الشديد، وأن أعلن أنني، إذا لم أكن عازفاً، فإنني متذوق للعزف، وأن بيتاً صغيراً، لزوجين متفاهمين، متحابّين، ذا دخل معقول، يكفي لحياة هنيئة، وأن حياتي، حياتي كلها، ستكون وقفاً على تهيئة مثل هذا البيت، وإنشاء مثل هذه الأسرة وإسعاد الزوجة التي أنعمت بها علي ليلة القدر.

حين أفضيت بأفكاري هذه لربيع المياس، صديقي، لم يستقبلها بما هو خليق بالصداقة من فرح للصديق. أعرفه رقيقاً، مثقفاً، منذ كنا على مقاعد الدراسة، ولدي حكايات عن شغفه بالموسيقى والرسم، ولعله معجب براجعة، لكنه يعرفها قبلي، ولو فكر بزواجها لأقدم على ذلك. هو، إذن، صديق لها ولوالدها لا أكثر، ولا مصلحة له في عرقلة زواجي منها، فلماذا استقبل ببرود رغبتي في التقدم لخطبتها؟ قال لي: «شفتاك دنستان» قلت: «ماذا؟ أية قبلة تعلق على أية شفة في هذا الكون؟ الاغتسال، يا ربيع يذهب بكل شيء». قال ربيع: «لماذا أنت، يا واصل، تغل بهذا المقدار؟ شطارتك، في التجارة، قد تبيح لك أن تخدع زبائنك، أن تقطع نصف غيمة، وتحملها على الأمطار فوق أرضك وحدها، لكنني، أنا، لست زبوناً، ولا غيمة، فعلام تفسر كلامي وفق هواك، وتقلبه على وجهه السطحي؟ شفتاك دنستان لأنك دنس كلّك، قلباً وعقلاً

ووجداناً، ولا ينفع الغسيل أو الاغتسال في تطهير القلب.. أنت ترغب في راجعة لسببين: جسدها وثروتها..» قاطعته معترضاً: «ومن أين لي أن أعرف أن لديها ثروة؟» قال: «هذه أشياء لا تفوت التجار عند الزواج.. أنت، يا لعين، تاجر من رأسك إلى أخمص قدميك.. والتاجر يدخل في حسابه، إضافة إلى الجمال، وقبله بالتأكيد، المال، النفوذ، الوضع العائلي، المكانة الاجتماعية، وقد تضاعفت الآن هذه «المشهيات»، في زمن النفعية، زمن الإثراء السريع».

جرحتني كلماته. صدقها لا نبرتها. عبست، تظاهرت بالزعل، كدت أزعل حقيقة، لكنني أخفيت ذلك، تظاهرت بأنني لا أحملُ كلامه على محمل الجد، خشية أن يدس عليّ لدى راجعة ووالدها. سألته فقط: «لماذا تقول عني ذلك؟» قال بغير تردد: «لأنك بورجوازي صغير..» سألته: «هل هذا لأنني تاجر؟» قال: «لأنك ذبابة.. تعرف جيداً كيف تقع على طبق العسل، وقد استخدمت ذبابيتك جيداً في انتمائك الحزبي.. واستغللت ذلك في تجارتك.. أنا أعرفك. أنت لا تؤمن بأي مبدأ، ولا بأي حزب.. أنت تاجر من زمن هولاكو.. ابتعد عن راجعة، وهذا أفضل».

لم أبتعد عن راجعة. ازددت اصراراً عليها. ربيع فتح عيني على أشياء مفيدة في زواجي هذا. هو لم يرد ذلك، لكنني استخلصته من حديثي معه. في أول زيارة لبيت فهيم المتبحر أدهشني ما فيه من ذوق، وتنسيق، وعناية بالزهور، والخضرة، والمكتبات الخشبية، الصقيلة، العنابية، اللامعة، ذات الزجاج الذي وراءه رفوف الكتب، وبعض التحف. كما أدهشني الهدوء.. وكل ما فيه مما

يبهر: من المقاعد، إلى مائدة الطعام، إلى طلاء الجدران، إلى مجلس الأب، في مكتبه، والمهابة هالة على رأسه. قلت في نفسي: «يا ربي، أكاد لا أصدق أن في وسعي ولوج هذه الحياة، ونيل حظوة لدى راجعة، والحصول على موافقة الأب». لقد تفحصني، أو خيل إلي أنه يفعل ذلك، وأفهمني بصراحة، باقتضاب، أنه لا يمانع، أو لا يريد أن يمانع، إذا وافقت راجعة، مع أنه لا يقر، وربما كان لا يوافق، لو كان الرأي له، أن يتقبّل زواجاً بغير حب، وبغير تجانس في المشارب، لكنه، ككل أب، يتمنى السعادة لابنته، السعادة التي تستطيعها على الأقل.. في مجتمع.. وكدت اضطرب وهو يهم بإصدار حكم على المجتمع، لكنه لم يفعل.. وخرجنا إلى الصالون الصغير، واستأذن، بعد دقائق، وعاد إلى مكتبه.

بقينا، راجعة وأنا، جالسين، كنت أتملى مفاتنها، كانت تتفحص شكلي كوالدها. كنت على رشاقة، وشيء من وسامة، وعلى ثقة من أنني سأخرج من امتحان اللياقة ناجحاً، وكان لي لساني... إنني أملك لساناً، لا لأنني تاجر فقط، بل لأنني خلقت هكذا، وجاءت التجارة فصقلت اللسان.. صارت الكياسة جزءاً من العمل، والآن، في حضرة المرأة، صار العمل والتهذيب والكياسة وذرابة اللسان وكل الجوانب المغرية فيّ، مستنفرة للتعبير عن نفسها. وقد أدّيت كل ذلك بنجاح، وحظيت بمعزوفة صغيرة، وبوعد في قبول دعوتي للعشاء.. جرى كل شيء على هذا النحو، على هذا النحو تماماً، ولمست في الوالد أمنية لم تتحقق. تساءلت: «ما هي؟» قال لي: «هل اشتركت، وأنت على مقاعد الدراسة، بتلك النشاطات التي يشترك فيها الطلاب؟» قلت: «مثل ماذا يا سيدي؟» قال:

«النشاط المدرسي أو الجامعي بصورة عامة؟» ذكرت له أنني لم أتم الجامعة، وأن نشاطي كان قليلاً، لكوني مرتبطاً بالعمل مع والدي، في إدارة المصنع، وأخفيت عنه، ما كان يريد أن يعرفه: موقفي الفكري، نشاطي السياسي، لكنه، في اللقاء الثاني، قوّمني على هذا النحو: «أنت، يا سيد واصل، عملي بكل شيء، وهذا يتفق تماماً مع كونك صاحب معمل للنسيج، وتاجراً بالتالي» وقلت في نفسي: «لقد كشفني.....» وسألت الله، ألا يحدّثني عن الكتب، ولم يفعل.. هل أدرك أن المطالعة ليست هوايتي؟ من المؤكد أن ذلك لم يغب عنه، وأنه لم يعطني علامة جيدة في هذا الحقل، لكنه، مع سبره غوري لم يعارض، حين وافقت راجعة على خطوبتي منها، بل بدا لي أنه مضطر إلى ذلك، برغم أنني لم أفهم سبب هذا الاضطرار، في ذلك الوقت.

أنا لديّ مرآة كسائر الناس، وأرى شخصي في مرآتي مثلهم تماماً. ولقد أكثرت من ذلك وأنا أخطو باتجاه راجعة. ارتحت إلى شكلي. ليس من عيب ظاهر أو مستتر في تكويني الجسماني. وإذا كان للمرء أن ينظر بعين الرضى إلى ذاته، فإن هذه العين ضاعفت رضاي. وكنت وسيماً، صناعياً، تاجراً ولي بيت في المزرعة، ولي حساب صغير في البنك، وكل هذه مؤهلات كافية كي أطرق، وأدخل أيضاً أبواب الأسر العريقة في دمشق. وكانت مصاهرة أسرة غنية نتيجة منطقية لإنسان مثلي، وكان صديقي ربيع قد لفتني، من حيث لا يدري، أن فهيم المتبحر يملك ثروة صغيرة أيضاً، وأن ابنته هي وريثته الوحيدة، وهذا ما جعلني أرى أن راجعة إلى جانب جمالها، ثقافتها، تملك، هي الأخرى، مؤهلاتها المؤاتية، وبذلك اكتملت

متطلباتي في عروس المستقبل. إنني أستطيع، براجعة، أن أتقدم إلى أمام، أن أعرضها، دون خوف، في المجتمعات، وأكسب من الإعجاب بها في تعزيز مكانتي الاجتماعية. ومع أنني كنت، سابقاً، متشوقاً لمعرفة شيء عن حياة من سيكون عمّي من الناحية المادية، فإن الحذر، مع فهيم المتبحر، كان واجباً. لم أشر أيما إشارة إلى هذه الناحية، وبطريقة عملية، افترضت أنه لا يملك سوى بيته وبعض المدخرات، وأن هذه الملكية كافية، وهي ليست، بعد، أقل كثيراً من ملكيتي، إذا ما أخذت في حسابي أنني ما أزال في المعمل والتجارة، شريكاً لأبي، وأخاً لعدة أخوة وأخوات، وأنه في حال تقسيم الإرث، فإن نصيبي منه لن يكون كبيراً، إلى الدرجة التي تجعلني أطمح إلى مصاهرة الأسر الغنية، العريقة في محتدها وغناها، وفوق أنني أحببت، والحب وحده، لو وضع في كفة ميزان، كان يعادل ثروة بكاملها.

وهكذا، على بيّنة من أمري، خطوت. كنت أريد زوجة جميلة. كان الجسد، الجسد وحده، ذا تأثير علي، وراجعة ذات جسد جميل، وخلق جميل، وسوف أعمل لإسعادها، وسيكون لي، أجل سيكون لي، ما أطمح إليه من ثراء، ما دمت أعيش هذا، وما دام، كما قال فهيم المتبحر، هناك ملوك للنسيج، أو هناك، على الأقل، مشاهير في هذه الصناعة. إن عزمي، وكفاءتي، وقدرتي على التلاؤم، وعلى التصرف أيضاً، إذا واتى الحظ، ستضمن لي الشهرة، أو الغنى الذي هو أساس الشهرة، ومنطلقها، وليس عليّ، في هذا الصدد، أن أخشى شيئاً، وأن أتهيب اقتحام الميادين بشباب كامل. وزوجة جميلة كاملة، وإرادة لا تلين في أنني سأكون، ومهما

واجهت من مصاعب، وجهاً بارزاً وصناعياً وتاجراً ناجحاً إلى أبعد حد.

كل هذا ظل حلماً في نفسي. ظل طية في سريرتي. لم أفصح عنه لأحد، ولا لراجعة.. على العكس، حدثتها عن مستقبل ملون، فيه وقت رحب لإشباع ما حرمت منه، وهو الثقافة. ولإظهار طيبتي، إنسانيتي، تقدميتي، رحت أتحدث في السياسة كما يتحدث الآخرون، وقد أصغت إلي راجعة بانتباه تام. كنت، دون معرفة بعلم النفس، أملك، بحسي العملي، تجربة ما في فهم نفوس الآخرين. وقد فهمت أن راجعة تريد الاطمئنان إلى هذه الأشياء، فطمأنتها، دون أن أكذب، ودون أن أصدق، فالمشاعر رهن الظروف، وهذه المشاعر التي أبديتها رهن ظروفي المقبلة، وإذن فأنا لا أخدعها، وهي وثقت، أو أضمرت أملاً، في أن ما قلته سيتحقق كله.

تمت الخطوبة بعد ذلك. قلت في نفسي: «هذه أول معجزة على أول الطريق». في الحقيقة كانت معجزة كبيرة. وكانت خطوبتي عائلية، بسيطة، واتفقت مع عمي على عدم إطالتها، وأبديت رغبة عن التجهز والجهاز ما دامت الحياة العصرية، في تلاحق الموضات وتقلبها، لا تستدعي ما كان آباؤنا وأجدادنا، ينفقونه من مال ووقت في سبيل تجهيز العروس، وإنهاء استعدادات العرس. الحق أنني كنت مدفوعاً بشهوانيتي، أو بتلك الاستثارة في جسدي لامتلاك جسد زوجتي المقبلة. ورغم انني لم أكن محروماً جنسياً، إلا أن مفاتن راجعة أثارتني، وكدت، أكثر من مرة، أرتكب حماقة لا تغتفر خلال الخطوبة، باندفاعي الحسي نحوها، ومحاولتي عناقها وتقبيلها، ومحاولة إقناعها أن هذا من العصر، وأنه، بعد الخطوبة، يصبح حق

الخطيبين مشروعاً في مثل ذلك، وأنه لا ضير من بعض الغزل، من بعض القبل، والعناق، حتى قبل ليلة الزواج.

أخيراً تزوجنا، أقمنا عرساً بسيطاً وسافرنا إلى بحمدون. هناك دخلت على زوجتي، وكانت، كما رجوت، باكراً. هذه البكارة، أساسية بالنسبة لي، لا لأن التقاليد تتطلبها، أو لأن الشرف يقتضيها، بل لأنني، كتاجر، كنت أريد تسلم بضاعة غير مغشوشة، بضاعتي كانت سليمة، وأحسست، منذ تلك اللحظة، أن ملكيتي ازدادت. صرت مالكاً لزوجة أيضاً، وصار خوفي إلى اطمئنان، ولم يعد شبح فهيم المتبحر، بعينيه النافذتين، يبعث تلك الرعشة في أوصالي. الآن كل شيء في يدي: المال، والجسد، والزوجة، والأمر والنهي، ومن حقي أن أكون رأس راجعة، كما الإيمان رأس الحكمة، وهذا شيء جيد ولو لم أمارس الرئاسة على أحد. إنك تبتهج، حين تمتلك حقاً، ولو لم تمارسه، وتبتهج أن تكون لك سلطة، حتى دون أن تتسلط، المهم أن تجمع الخيوط في يدك، وقد جمعت كل الخيوط في يدي، وتقت، منذ العرس، أن أعيد إنشاء راجعة على كيفي، أن أشكلها وفق منظوري، أن أعيد بناءها، كما لو كانت بيتاً خاصاً لي، بيتاً أريد جعل كل ما فيه في خدمة أسرتي. ولم أقس عليها فيما لا تريد. أدركت أن مصدر الخطر، على مشاريعي البيتية، هو عمي، فأضمرت الاقلال من زيارته. ومن طيب الريح أنه هو، فهيم المتبحر، لم يكن راغباً في هذه الزيارات، وهذا ما أراحني وأزعجني، ووجه الإزعاج فيه، أن الوالد لم يكن، في أعماقه، سعيداً بزواجي من ابنته، لسبب جهلته، لكنني لاحظته، وازددت يقينية منه مع الأيام. ذلك أن فهيم المتبحر، لم

يخف، مع تقدم الأيام، كرهه لمفاهيمي السياسية والاجتماعية والاقتصادية على السواء، رفضني إذ رفض هذه المفاهيم، ولكن بعد فوات الأوان، بعد أن تزوجت راجعة، وصار كل ما يستطيعه هو الندم، يكرّهُ كمسبحة، وأنا أرى إليه وأفهم مصابه، وأكره أن يعتبر ذلك مصاباً، وأتلذذ في أنه يتعذب به. ماذا يظن فهيم المتبحر هذا؟ أيحسبني دون ابنته ثقافة؟ يفاخرني بأنها بنت عالم، بينما أنا ابن دباغ جلود؟ حسناً! دبغ الجلود، في دنيا الواقع، أفضل من قراءة الكتب والتعلق بالخيال. أن تكون دباغاً فأنت تعمل، أما أن تقرض الكتب، كجرذ كبير، فهذا خيال، هذا كسل يجعلك مساوياً للجرذ في ضرره، وتصبح مكافحتك واجبة. بالنسبة لي، أكره جميع القوارض. هو يقول إن لكل شيء فائدته، فما هي فائدة الجرذ؟ إن ضرره، حتى مع التقزز الذي يبعثه في رائيه، محتمل، أما ضرر قارض الكتب، فإنه بالغ بسبب ما يفسد من عقول الناس.

ولقد تفجر الموقف بيني وبين والد زوجتي في إحدى الليالي. كان في زيارتنا، وكان كذلك صديقنا المشترك ربيع المياس. وكان هذا، بصفته رساماً، يكثر من الحديث عن الفن: الأدب، الموسيقى، الرسم، وما كنت أدري أن اهتمام فهيم المتبحر يجاوز الاستمتاع الآني بهذه الأشياء. أنا لا أقول إن اللوحة لعبة لون. هذه اللعبة لها فائدتها التزيينية، لهذا كنت أفضل الطبيعة الصامتة في اللوحة، أما ربيع فيرى أن الانطباعية التي خلقت لنا طبيعتها الصامتة، كانت مدرسة في خدمة البورجوازية الأوربية، ماذا تريد يا سيد ربيع إذن؟

قال ربيع:

- أريد الإنسان.

قال فهيم المتبحر:

ـ الإنسان موجود في الطبيعة أيضاً.

وافقه ربيع:

ـ عندئذ تكون طبيعة مؤنسنة يا سيدي.

قال عمي:

ـ رأيت، في إحدى اللوحات، شجرة ضخمة جداً، والعاصفة تعصف بها بشدة، فتميل غصونها وفروعها حتى تكاد تذهب بها، لكن جذع الشجرة كان صامداً. هكذا هو الإنسان. الشجرة، هنا، متحركة. المدخنة، في لوحة ليس فيها سوى بيوت، إذا أطلعت دخاناً، فهي تعطي إحساساً بوجود الإنسان، إنها الحركة.. لست ضد الانطباعية، إذا كانت طبيعتها الصامتة تتكلم.. تومئ، تعطي إحساساً بالحركة، بعنصر المادة المتحرك، المتغير على الدوام.. أنا هكذا أفهم الطبيعة المؤنسنة.

قال ربيع:

ـ ما أجمل ما تقول يا سيدي.. كأنك تترجم عني، لشد ما هي واسعة ثقافتك..

كان ربيع يمالئ، أكره الممالأة، أكره شروحات فهيم المتبحر. أكرهه هو بالذات، قارض الكتب هذا، الجرذ الضار الذي يذكرني بما صنعت الجرذان بسد مأرب..

قلت:

ـ لا تحشروا الإنسان في كل شيء.. الطبيعة هي الطبيعة، فالشجرة، في الغابة، تحمل قيمتها بذاتها، تحمل «أناها»..

رد ربيع معارضاً:

ـ لا شيء يحمل «اناه» دون «الأنا» الآخر.. الشجرة، في الغابة، ليست دون صلة بالإنسان. الإنسان كان في أصل وجودها..

فكرت: «الوغد يدجل.. يزيدني سوءاً في عيني عمي. كلاهما جرذ.. الجرذان، معاً، يتبادلان المساندة. يتعاونان علي. هذا يأتي برأي، والآخر يسرع للموافقة عليه. تفو.. أي صنف من الرجال يكونه هؤلاء الخياليون؟ الحمد لله أنني واقعي..

قلت:

ـ أنا أؤمن بواقع وحيد هو: أنا، أنا..

قال عمي:

ـ لكنك، في معمل النسيج، وفي التجارة، لست «أنا» فقط.. في معمل النسيج هناك الآخر.. العامل.. وفي التجارة، هناك الآخرون: المستهلكون..

بادر ربيع إلى النهش.. الذي خجل عمي أن يقوله تكفل به هو، قال:

ـ صحيح،.. هناك العامل الذي تستثمره.. والمشترون الذين تسلخ جلودهم..

امتلأت غضباً. صار الغضب رمحاً في دمي، ربيع صديق، وأعرف آراءه السخيفة هذه، لكنه، مرة واحدة، لم يتهمني من قبل. الآن، أمام فهيم المتبحر، يريد أن يسجل علي نقاطاً.. ماذا يريد هذا الوغد، رأس المغرز، ابن العاهرة؟ أضربه؟ أطرده من بيتي؟ أفضح حقيقته التي يزعمها بوهيمية، وهي تشرّد متصل؟ وراجعة، التي تسمع الاتهام الكاذب يمزق لحمي، ما بالها ساكتة؟ ألسنا شريكين، في السراء والضراء؟ ألم يقل لنا الكاهن، عند زواجنا:

«اتركي أمك وأباك واتبعي زوجك؟» ألا تعرف كلام المسيح هذا؟ نسيته؟ أنساها إياه أبوها؟ ولماذا تصمت والكلب ينهشني؟ ثم وجهها.. عيناها، شفتاها، ملامحها، لا تدل على غضب بل راحة.. مستريحة هي؟ معجبة بربيع المياس؟ تحبه؟ لماذا لم تتزوجه إذن؟ تزوجني لتكون عشيقته؟ نعم.. هذا هو.. الفنانون لا يتزوجون.. يعشقون زوجاتِ أصدقائهم.. حقارة!

جالت كل هذه الخواطر في بالي. كنت أغلي، كنت أحترق كالشمس. لكنني تمالكت نفسي، لست لقيطاً حتى أخاف الاتهام، تعلمت مع الأيام أن أضبط أعصابي، ابتسمت. قلت محولاً التهمة إلى مزحة:

ـ أنت تعرف، يا ربيع، أنني لا أستثمر أحداً، في معمل صغير، يعمل فيه رب العمل يداً بيد مع العمال، لا يكون استثمار، أما كتاجر، فأنا أبيع بالجملة، الذين يسلخون الجلود هم تجار المفرق. ثم لا تنس، في أي حزب أنا..

ـ انت اشتراكي. قال ربيع..

ـ وأكثر..

ـ وتؤمن بقول المسيح..

ـ تمجّد اسمه..

ـ إذن بع املاكك واتبعه على طريق الجلجلة..

ـ سأفعل ذلك يوماً..

ـ وطبقتك؟

ـ مالها؟

ـ الإنسان ابن طبقته.. أنت لست إلا بورجوازياً صغيراً..

اجبته بحسم:

ـ الإنسان لا يخرج من جلده..

هنا وجد عمي منفذاً إلى كبدي، قال:

ـ على كل منا أن يسير، لا مع الطبقة التي ينتمي إليها، بل مع الطبقة التي تبدو قضيتها أفضل..

ـ إنما أنا مثلك، يا عمي، طبقتنا واحدة.. ألست بورجوازياً أنت أيضاً؟

ـ كنت.. ولدت في طبقة بورجوازية.. ثم غيّرت موقعي..

ـ وراجعة؟

ـ هي الآن زوجتك.

قالت راجعة، لأول مرة في هذه الجلسة:

ـ نحن زوجان في رأي الكنيسة، لكن أفكارنا تختلف.. لا أدين زوجي، ولكنني، في الانتماء، على شريعة والدي..

ـ برافو (قلت) هكذا تكون الزوجات..

وبعد صمت:

ـ الأفضل أن تعزفي لنا قطعة موسيقية..

ـ أي قطعة تريد؟

ـ لا يهم.. الموسيقى، بعد كل شيء، نغم.. نغم يضيع في الهواء.. مثل الكلام..

قال عمي:

ـ الموسيقى الكلامية ليست إلا شكلاً ترتديه الصلاة في أنفسنا.

ـ لم أفهم..

ـ الموسيقى نغم لا يضيع.. له هدف..

ـ والرسم؟

قال ربيع المياس:

ـ والرسم كذلك.. الرسام لا يمجد «اناه» وحدها.. يمجد «الأنا» الآخر أيضاً.

ـ لست مذنباً إذا كانت «انا»ي منفصلة عن الآخر..

قالت راجعة لتحرجني:

ـ وحتى عن زوجتك؟

رغبت في مناكدتها فقلت:

ـ حتى عن زوجتي.. ما دامت «أنا» زوجتي منفصل عن «أنا»ي.

قال عمي محاولاً قطع الطريق على ملاسنة منذرة بيني وبين راجعة:

ـ لندع الفلسفة.. كنا نتكلم في الرسم.. ما رأيك في الرسم..؟ هل له منفعة..؟

ـ أهذا امتحان لعقائدي؟

قال مبتسماً:

ـ لا تخف على عقائدك..

وقال ربيع:

ـ منذ متى صارت لك عقيدة؟

قال عمي:

ـ واصل أكثرنا تجذراً في عقيدته.. وإلا فما معنى هذه «الأنا» المنفصلة عن كل ما عداها؟

ـ هذا ما يسمونه استقلال الشخصية..

ـ لا شيء مستقل في هذه الدنيا بصورة مطلقة.. لا الموسيقى ولا الرسم..

ـ أفسدتم كل شيء.. اخضعتموه للإعلان.. للدعاية الخسيسة..

قال عمي صارماً:

ـ أنا لا أخاصمك.. نحن نتحدث.. أنت، كما علمت منك، تحب الطبيعة الصامتة.

ـ أنا أحب الموسيقى الخالصة، الرسم الخالص.. البراءة.. هذه التي أريدها..

قال ربيع:

ـ البراءة لا تتعارض مع الحقيقة.. البراءة في الرسم عفوية.. عفوية واعية.. الإنسان لدي...

قاطعته:

ـ الإنسان في لوحاتك يبدو مكشراً أبداً، كأن يداً خفية تضربه على أنفه.

تساءل عمي:

ـ ألا تحب الإنسان في الرسم؟

ـ أحبه، لكن لا أريده داعية.. أن نرسم إنساناً، يعني أن نجلوه في حالة من حالاته.. رسّامونا، وخاصة ربيع، لا يرون في الإنسان إلا جانبه الرافض. إذا تواضعوا رسموه متمرداً.. لكنهم، غالباً، يرسمونه ثورياً. يفسدون الرسم بتشنجات كاذبة..

قال عمي:

ـ وكيف تريده أنت؟

ـ أريده طبيعياً، في مسلكه اليومي، في بحثه عن الهدوء، عن الوئام مع صاحب العمل.. أريد الإنسان أخاً للإنسان..

صاح ربيع :

ـ هـذا تبشير . . دعـاية . . كيف تـزعم أنك لا تـريـد دعـايـة في الفن؟

ـ التبشير بالإخاء واجب مقدس . . الثورة الفرنسية نفسها اتخذته شعاراً لها .

ـ الثورة الفرنسية لم تكن تقصد الإخاء بين العامل ورب العمل، بل بين الثوار أنفسهم .

ـ ونحن . ؟ ألسنا ثواراً كلنا؟

حدق فيّ ربيع ولم يقل شيئاً. أعياه الجواب، ربما أحرجه. أنا سألته ببراءة. ولم يكن في نيتي أن أنقل جوابه إلى أحد، لكنه هو، رازني بدهاء، والتفت إلى راجعة قائلاً:

ـ زوجك يتقدم بسرعة . .

قلت :

ـ كلنا نتقدم بسرعة . .

قال ربيع :

ـ ولكن ليس في طريق واحدة . .

ـ هل هذا لأني رب عمل وأنت رسام؟ .

ـ بل لشيء آخر تعرفه . .

قالها ونهض، وأصر عمي على الانصراف أيضاً، رافضاً البقاء لتناول العشاء معنا. ولم أشأ أن أتمسك به . . كانت زياراته ومناقشاته تزعجني، تزعجني إلى حد أصبح لا يطاق . .

المهم أن عمي لم يعش طويلاً . . بعد سنة وبضعة أشهر من زواجنا توفي. رغب أن يختلي بابنته قبل الوفاة. لم تقل ما دار بينهما

في الخلوة. حسبت أنه اطلعها على أشيائه الخاصة، على ماله وما عليه، لكنها، بعد سنوات، قالت لي إنه حدثها عن شعور لا يدري مأتاه، شعور بأن الزيجة كانت غير مريحة بالنسبة إليه. وأنه لم يقل ذلك صراحة، لكنه أوصاها بالصبر، ولا أدري بماذا أيضاً. وانتهت مراسم الدفن وتقبُّل التعازي، فأغلقنا البيت، تركناه مهجوراً دون أن ألح الى رأيي في بيعه، فلو بيع لوضعت راجعة قيمته في البنك، وكانت هذه القيمة باضت قيمة ما. ولم تشأ، كذلك، أن تخليه وتؤجره، وهكذا بقي دون فائدة، ولم يكن هذا التصرف يروق لي، فليس من العقل في شيء أن يبقى عاطلاً، مجمداً، الأمر الذي لا يتفق، بأية حال، مع وجهة نظري في تصريف الأمور، لكن راجعة تشبثت برأيها، ولم أستطع، بكل كياستي، أن أزحزحها عنه، وكان ذلك قميناً بإثارة سوء تفاهم بيننا، نجحت في تلافيه، ولم تلحظ هي شيئاً.

نحن، في هذه الحياة، نلعب لعبة الاستغباء، أنا أستغبيه، وهو يستغبيني، ونحن الإثنان، نستغبي غيرنا، مع أن كلاً منا يفهم موقعه، طبقته، مصالحه، ويدافع عنها جيداً، لا شك أن فهيم المتبحر، وربيع المياس، يستغبيانني، وأنا استغبيهما، لكننا، جميعاً، نفهم جيداً، في أعماقنا، ما نريد، وندافع عن مواقعنا بغير قليل من اللجاجة، وأحياناً بوقاحة، وفي غيرها ندافع بغير القلب واللسان. عمي، فهيم المتبحر، أذكى من ربيع، وربيع أذكى من راجعة، لكنهم، ثلاثتهم، يقفون في صف واحد، صفّ رصد الآخرين، بينما أنا أقف مدافعاً عن الواقع، لأن عقيدتي، ومصلحتي، تقتضيان ذلك، انني لن أهاجر كالسنونو، أو السمان، أو الطيور الموسمية، سأبقى

في صفي، طبقتي، لأن الآخرين، لا يهاجرون من صفهم، وطبقتهم، وهم يحسبون الحق معهم، ويقيسون الأشياء بمعيار أشبارهم، بينما نقيسها نحن بمعيار الحقيقة.

يريدون الفن محارباً على جبهتهم، ونريده محارباً على جبهتنا، وهذا كل ما في الأمر، لكن الفنانين، جميعاً، وكذلك الأدباء، والموسيقيين، يستهويهم الرفض، بينما يستهوينا القبول. نريد أن نعيش بسلام، في وقت يريدون، هم، أن نعيش في حرب، وهذا يرفضون الاخاء بين الواقع والمواطن، بين رب العمل والعامل، ويشوهون واحداً من أجمل مبادئ الثورة الفرنسية.

إنهم يحسدوننا، ولكنهم لا يتذكرون، أو لا يوافقون ولو ذكرناهم، كيف صعدنا السلم درجة درجة، وبكثير من العرق والكدح. أنا ثري، هذا صحيح، ولكنها ضربة الحظ، ضربة الجهد، لقد جاهدت كثيراً، وسأعترف لكم صادقاً كيف أثريت:

بعد عامين من زواجنا فاتحت والدي بالاستقلال عنه، أعطاني البيت الذي أسكنه في المزرعة، وبقي المعمل شراكة مع العائلة، وهذا ما غلّ يدي عن حرية التصرف. قلت في بالي، سيأتي اليوم الذي أستقل فيه بالمعمل كما استقللت بالبيت، لكن ذلك يحتاج إلى مال، وفي سبيل الحصول عليه رحت أدخر، لكن الادخار لا يرسمل شيئاً، حتى على المدى الطويل، وإلا لكان أي موظف، يدخر قليلاً، قادراً أن يغير وضعه، وهذا نادراً ما يحصل. من هنا يفهم الموظف الشاطر، أن السبيل المستقيم ليس أفضل السبل، لا علينا، أنا لست موظفاً، ولم أكن موظفاً، ولا أحب الوظيفة، الادخار تقتير، تخبئة القرش الأبيض لليوم الأسود، أما أنا فقد كنت

أريد شيئاً آخر، أريد ضربة حظ، وهذه لا تأتي لحالها، تأتي بمساعدتنا، وكي أساعد ضربة حظي استأجرت بيتاً، وعرضت بيتي للبيع، فلم يدفعوا فيه أكثر من أربعين ألفاً، لم أبعه. كان ذلك عام ١٩٦٨، وفي عام ١٩٧٥، شقت المحافظة شارعاً، أخذ بيتي في طريقه، فقبضت قيمة استملاك ٢٠٠ ألف ليرة. كانت هذه ضربة الحظ الأولى، أما الثانية فقد جاءت بعد وقت قصير، وعلى شكل صفقة غزول. صحيح أن الصفقة لم تسلم كلها. إذا لم تدفع التسعة لا تحصل على العشرة، في الصفقة دفعت اثنين في العشرة، وبقيت الثمانية لي، خرجت من صفقتي هذه بثلاثمئة ألف، فصار لدي نصف مليون.

ما أن مضى العام الثالث على زواجي، حتى صار لي طفل هو الركن الأول في المساعدة، ذلك أنني من محبي المال والبنين، ها هو المال يصير، والابن يأتي، وحلم الغنى، حلم أن أصبح شهيراً، ملكاً للنسيج ولو في دائرة معينة، يسير نحو التحقق، وهذا كله جدير بأن يفرح راجعة، أن يبعث السرور فيها، أن يجعلها تحبني أكثر، تعشقني أكثر، تعبدني، على المرأة أن تعبد الرجل. وإذا كان الأمر غير مطلق، ولا بد من الإجابة على هذا السؤال: أي رجل؟ فالجواب أعطيته من خلال نجاحي: أنا هو الرجل! لكن راجعة، لا تنظر، وأسفاه، إلى الأمور من الزاوية التي أنظر منها. تريد، كما تقول، بعض الخصال في الرجل، أحسب أن من خصاله، بل أول خصاله، أن يكون كوالدها. وماذا كان والدها؟ هنا يجب، كما كان يقول هو نفسه، أن تكون النظرة موضوعية. لقد اعتدت، عمري كله، أن أولي الوجاهة حقها، فماذا، في تبحّر والدها، على فرض

أنه كان عميقاً وشاملاً، مما يصنع وجاهة في زمننا هذا، زمن القيمة المادية لكل شيء؟ العلم؟ هذا على رأسي، وسأكون معترفاً به، وخاضعاً له قبل الجميع، إذا كان علماً عملياً. لو أن فهيم المتبحر أفاد من علمه في اختراع نول جديد للنسيج، في تركيب آلة تسرع في الانتاج، في طبخ وجبة صابون لا سابق لها في السوق، لكان العلم الذي أفهمه، ولترك، من جرائه، ثروة كبيرة لابنته. أما أن يتبحر في علوم نظرية، كأن يبرهن أن المادة لها الأولوية، وأن الحركة هي قانون المتغيرات، كما كان يقول لي، نقلاً عن أرسطو، فهذه فلسفة، والفلسفة لا تطعم خبزاً إلا في حال واحد: أن نصنع بها كتباً تباع وتروج في البيع، أو نعتمدها في التدريس. وبما أن فهيم المتبحر لم يفعل الاثنين، فإن علمه لم ينفعه في شيء ولا انتفعت به ابنته في شيء أيضاً. وأما حجتها في أن العلم، والأدب، والفن، وكل هذه الألوان التي هي ترف وحلية وبهرج لخدع السذج، تصوغ وجدان الذين يخترعون ويصنعون، فهذا كلام لا أقبضه أبداً. إن رجل الأعمال هو رجل الأعمال. أنا الآن رجل أعمال. رجل يساوي نصف مليون، لأن معه نصف مليون، فماذا، في دنيا العمل، يساوي والد راجعة إذن؟ لا شيء. قيمته قيمة البيت الصغير الذي تركه، ومئات الكتب التي خلّفها، والغرور الذي رسخه في ذهن ابنته. لقد ذهب هو الآن إلى رحمة ربه، لم يعد يفيد أو يؤذي، وما كان في حياته مفيداً، ولا أدري إذا كان ضاراً، بل أظن ذلك، من ناحية نشر الإلحاد على الأقل، وهذه أشياء أقولها جهاراً، أمام ابنته، كي تفهم، أخيراً، ماذا كان والدها. أنا لا أناكدها. لست من محبي النكد، ولكنني لا أسكت عليه، حتى من أقرب الناس إلي، يكفي، قلت لراجعة، تفاخراً بما لست أدري من

فضائل والدها. لقد ذهب بخيره وشره. . إذن نقطة على السطر. نحن أولاد اليوم، واليوم هو يوم المال، وكل شعر الدنيا لا يساوي ربطة غزل. ربما كنت أبالغ. هذه أشياء تضمر ولا تقال. تضمر لأن الجهر بما يضع المرء في خانة غير حميدة، وغير مستحبة، لرومانسية مثل راجعة، ولكني اضطر إلى قوله، حين لا تترك مناسبة إلا وتستغلها في القدح من روحي العملية، ومدح روح والدها الرومانتيكية، وحتى هذه الكلمات، التي تكثر من تردادها، والتي أحفظها عنها دون أن أكترث بمدلولاتها، صارت تزعجني. فالزوجة التي أنعم الله على زوجها ينبغي أن ترفل بالنعيم، تتمتع به، وتقوم بالواجب الاحترام لجالبه، أو تصمت على الأقل. لكنها تريد أن تعرف مع ورود المال، كيف ورد، من أي مصدر، وبأية طريقة. نحن، في التجارة، في الجمارك، مع المصارف، نتعامل بسندات الاعتماد، والشيكات، والبوالص، والبيانات والتصاريح، وهذه شهادات لا علاقة لها بحسن السلوك. سلوكها الحسن يتوقف على صحتها، وعلى دقتها، على القدرة في تصريفها، تمريرها وبعد ذلك يأتي الناتج، وهو المهم، وبه تقاس موهبة الصناعي والتاجر، لا بشيء سواه.

حين صار لدي نصف مليون، تكتّمت على الأمر جيداً. أن ترى المرأة الصندوق الحديدي في بيتك فهذا من حقها، أن تقدر أن هذا الصندوق ليس تحفة بل خزنة فهذا من فراستها، لكن أن تطلع على ما بداخله، فهذا لين من رب البيت، حتى أمام زوجته، كما أنه تفريط من ربّ العمل، أمام عماله. الصندوق هو الصندوق. ليس نملية طعام، أو براداً، وهو مدعاة فخر، وإنني أفاخر به، وأسمعه

متكلماً حتى في صمته، وهو إلى يميني في مكتبي، أو في غرفة عملي في بيتي. هذا الصندوق، بالنسبة للصانع، والتاجر، وصاحب المال، هو الجهاز، الفتاة رأسمالها شرفها، والزوجة وفاؤها، وربة البيت منظر بيتها، والمعلم مكتبته، أما أمثالنا فرأسمالنا هو مالنا، والصندوق الحديدي رمز هذا المال، شهادته، وواجهته أمام الغير.

المصارف مؤممة في سورية، أنا لا أحتج على تأميمها، كنت أتمنى، تسهيلاً للعمل، لو لم يكن، إلا أنه كان، فما العمل؟ نقف مكتوفي الأيدي؟ في كل تدبير قانوني، مصرفي، وفي كل لائحة تجارية، تبقى ثغرة، ومنها يمرق الذين لا يستطيعون حيال القانون أو اللائحة شيئاً. أنا، بكل ما يتيحه لي العرف، وشرع السوق، وحق المهنة، دخلت من هذه الثغرة، فكرت: ربع مليون مبلغ كبير. حولت مئة ألف ليرة منه إلى دولارات في «تم» سوق الحميدية. هنا مصارف لا تخضع للتأميم، كوى متحركة لتبديل العملة. الصيارفة لهم ثغرات ينفذون منها أيضاً. أمموا المصارف، هذا حقهم، مؤقتاً على الأقل، ولكن للصيرفيين، في سوق الحميدية، حقوقهم أيضاً، ونحن نفيد من حقوق هؤلاء، وهذا شأني وشأن الآخرين. حملت الدولارات، والمئة وخمسين ألف ليرة سورية إلى بيروت. هناك متسع كبير، وحرية نقل الأموال مضمونة، وهذه نعمة كبيرة، وإذن فأنا لم ارتكب أية مخالفة في نقل أموالي. حملتها إلى بيروت، وهناك جمدتها، في أحد البنوك دولارات بفائدة ١٧,٢٥ بالمئة. عدت مرتاحاً. مليئاً بالراحة، وبأشياء كثيرة لراجعة والطفل ناهض والبيت، لكن زوجتي رغبت في أن تعرف لماذا سافرت إلى لبنان، وماذا صنعت هناك، وحين رغبت في إسعادها، أو إشراكها في سعادتي، أفسدت

علي بهجة الجو. حجتها أن إخراج المال من سورية، حتى ولو كان مسموحاً به، ليس علامة جيدة، تقول: «إذا فعل الجميع ما فعلته، وهذا من حقهم كما هو من حقك، فماذا يبقى في سورية؟» الحجة وجيهة، لكنها ملكية أكثر من الملك، فما دامت الحكومة تسمح بذلك، فهي أدرى بوضع البلد المالي، وليس علي، أو على أمثالي، لوم ولا تثريب. ولكن راجعة لم ترتح لذلك، وأنا أريد راحتها، لهذا أخذت عهداً على نفسي ألا أطلعها على شيء، أو أفاتحها بشيء. لا أريد لغواً في شأن تجارتي. الحزم! هذا هو القانون، تماماً كما في شؤون التربية، الحزم بند رئيسي، لكن ذلك فتح مجرى للشك بي. وصارت تحركاتي، مع الأيام، موضع شك كلها، وهذا ما دعاني إلى التساؤل: راجعة ساذجة أو غبية؟ وماذا صنع فهيم المتبحر بعقل ابنته؟ الطب نفسه يقول: من المستحسن، لبدن الطفل، ألا يوضع في جام. تعرضه للشمس، في الصغر، يجعل مناعته أفضل. عمي الفاضل وضع ابنته في جام، جعل داخلها أبيض كالثلج، وأعدها، ربما، للزهد، لا للحياة العملية، وهذا منشأ عدم التلاؤم، أو اختلاف وجهات النظر بيننا.

ينبغي أن أعترف أنني أحب راجعة. قل اشتهيها. وما الفرق؟ هي تقيم وزناً لمثل هذه الفروق. تريد الأشياء في شاعريتها، ترفض أن تسمى بأسمائها، تأبى أن يذكر عضو جارح للأذن، مع أن ذكر هذه الأشياء، في لفظها العاري، يبعث على المتعة، وكل شيء مباح، في شرعي، إذا ما ضمت رجلاً وامرأة غرفة واحدة. خارج هذه الغرفة يحسن التحفظ، التجمل، المداراة، أما داخلها فلماذا التستر، جسداً وكلاماً؟ أين، إذن، نكون نحن ومباذلنا، إذا لم يكن في غرفة نومنا؟ أحسب أنها تريد ما في الكتب في الواقع. قلت لها

أكثر من مرة: «أنت، يا راجعة، لست واقعية أكثر مني، لكن الكتب، وخاصة كتب والدك، ضعيها خارج حياتنا الخاصة. انزلي من علياتك، فكري أننا بشر ولسنا ملائكة» أجابتني: «لست ملاكاً، ولكن بعض صفات الملائكة، شكلها، صورها، طهرها، يعجبني، مع الواقعية لا بأس بشيء من الشاعرية، بشيء من الكلام الجميل، من السلوك «المودرن» الذي يحتفظ، في كل الأحوال، بحد أدنى من «الجنتلمانية» في مثل هذه الأحوال، عند هذه المحاورات، يعتادني القلق، أخاف أن يكون اختلافنا، من هذه الناحية، سبباً في نفور ما بيننا. إنني قادر على التجاوز، لا يضيرني شيء أن تبقى محافظة على رفعة مشاعرها، بل إن هذا يبعث الطمأنينة في نفسي بأنها ستبقى على براءتها الأولى، وكرجل، ورجل شرقي، هذا أدعى إلى راحتي النفسية، لكن المثل يقول: «من يخجل من زوجته لا يأتيه أولاد» وأنا أريد الأولاد، وأريدهم بكثرة، وأريدهم في جو من الحب المتبادل مع أمهم، ولا أقبل تحفظاً، أو عفة، أو خجلاً في غرفة نومنا. هنا، في هذه الغرفة، نحن زوجان، وهي، بعد كل شيء، زوجتي، وأنا حر بالتصرف بها كيف أشاء، وقد أفهمتها ذلك صراحة، وفرضت عليها الطاعة، وحاولت أن تستجيب، لكن تربيتها، وتلك الكتب، وذلك الأب، والموسيقى، كل هذه حالت بينها وبين أن تستجيب بغير كره، وعندئذ أكرهتها على ما لا تحب، ولم يكن لها خيار، «فأذعنت» أو تظاهرت بذلك، وقلت في نفسي: «لا بأس!.. مع الأيام ستعتاد...» وانتفى قلقي، أو بعضه، من هذه الناحية.

انصرفت، بكل همتي، إلى عملي، قسمت يومي إلى قسمين:

النهار للعمل، والليل للتسلية، لي أصدقاء كثيرون. أقربهم إلى نفسي لا يتجاوزون أصابع اليد، هؤلاء اصطفيتهم بداعي المزاج، ومتطلبات الشغل. إن الدكتور طامح، طبيب القلب، من زملائي في السفر، وخاصة إلى بيروت، أديب حواصلي، تاجر الأراضي، ولاهف السمسار، وآخرين، ألتقيهم مرة أو اثنتين في الأسبوع، نشرب، وأنا أجد في الشراب متعة، ثم إن العمل يتطلب أن أقدم شيئاً لضيوفي. أقول في نفسي إن البذخ، في مثل حالي، ضروري. أنا أسعى، وكي تتكلل مساعيّ بالنجاح، لا بد من الرشوة، هذه ذنب؟ إذن أنا مذنب، لكن دون ذلك لا تمشي الأمور. ولقد كنت مستعداً، لو كان في الدين متسع، أن أتزوج امرأة أخرى، وفي اثنتين ارتوي، أكون، في تلك المرحلة، قد شبعت، ترى أشبع؟ خوفي ألا أشبع من ثلاثة: المرأة، والكأس، والعمل.. لكن ما هو العمل؟ بعد كل شيء، أنا لست طبيباً، أو مهندساً، أو مدرساً، أنا تاجر، وعلي، للنجاح، أن أفهم مهنة التجارة، أتقنها، عليّ أن أصعد، بعد إتقانها، دائماً إلى أعلى، دارساً، بكثير من الدقة، موطئ قدمي، ليس معنى هذا أن المجازفة غير واردة. أن تكون تاجراً فأنت مغامر، مضطر إلى المغامرة، وأن تكون تاجراً في مثل ظروفنا، في مجتمع يدعي أنه يسير إلى أمام، بينما نحن.. كيف أقول؟ كلمة البندقة قبيحة، لكنها الكلمة المعبرة. حين يمشي الناس في طرق مستقيمة، يكون عليك أن تستقيم، وعندما يمشون في طرق ملتوية عليك أن تلتوي. لا أقول إن التجار يسيرون في طرق ملتوية، لكن ماذا يفعلون إذا كانت الطرق الملتوية مفتوحة؟ أنا أقل الجميع سيراً في مثل هذه الطرق، لكنني أسيره. هم اضطروني إلى هذا السير، لأنهم هم الذين وضعوا القوانين التي لا تنفع معها الخطوة الشريفة.

المهم أنني، وفق خطة مدروسة، وضعت نصف رأسمالي في الخارج، وبالنقد الأجنبي، وأبقيت معي النصف. هكذا يفعل الآخرون. أنا لن أكون أكثر آدمية منهم. السوق لا ترحم. المزاحمة لا ترحم. الوقوف يعني الجمود، وهذا الموت.. لا أحد يريد أن يموت، وليس من تاجر يقبل أن يخسر، وعليّ إذن أن أخوض في النهر الذي فيه يخوضون. تقول إنه نهر عكر. لا يهم، إذا انتظرنا نقاء الماء متنا من الجوع، أفلسنا بأقل تقدير. عملت بالمبلغ الباقي في التجارة. أبقيت المعمل واجهة. صرت أتاجر بالغزول والأقمشة، أعقد صفقات مثل غيري، وأربح مثلهم أيضاً، وكل ربحي، أو قسمه الأكبر، أشتري به عقارات، أو أضعه في المصارف الخارجية، التحويل من دمشق ممنوع. أقاموا جداراً في وجهنا، خطاً حصيناً، لكنهم فتحوا لنا ثغرة باتجاه لبنان، ومن هذه الثغرة تسرب الجميع، وأنا منهم. يوم الخميس، بعد الظهر، أنزل إلى بيروت، أفعل ما يفعله آلاف التجار والأطباء والمهندسين وتجار الأراضي وتجار العقارات وأصحاب المعامل الخاصة. نتوجه أحراراً إلى لبنان، فنضع ما تحصّل معنا خلال الأسبوع، ونعود أدراجنا يوم الجمعة صباحاً. كانت عودتي، قبل ظهر الجمعة، مؤكدة، إلا في حالات الطوارئ، لأن علي، ظهراً، أن أكون في النزهة المعتادة إلى الزبداني أو بلودان، وفي الموعد المحدد، في مطعم الكرمة، ومثل الساعة السويسرية أوميغا، التي زينت بها معصمي، بدأت سفراتي المكوكية منتظمة بين دمشق وبيروت وبالعكس، مع المحافظة على السرية التامة، السرية التي اقتضتني أن أحفظ رقم الحساب، عن ظهر قلب، فلا أترك، لا في مكتبي، أو في بيتي، أثراً يدل علي.

صوت ٤

نبوءة والدي، وهو على فراش المرض، كانت صادقة. زواجي بواصل الدلجي كان فاشلاً. أقول فاشلاً كيلا أتجاوز. إنني غصن في شمس، أنا جدول انتهى إلى بركة، فتحت كل نوافذ بيتي للريح، وكل أشرعة قاربي للهواء، لا الريح دخلت بيتي، ولا قاربي أبحر، ليّل الليل عليّ. نزّ الحزن من الجدران، تسرطنت الكلمة فصارت قبيحة، قبيحة، قبيحة.

زوجي يمعن في قهري. هو يدري أنه قهر، لكنه يريده. يعتبره ترويضاً للفرس الأرنة التي هي أنا، أواه على الفرس التي كنتها يوماً! الأصح أواه على المرأة الوادعة، المتفتحة للحياة بقلب أخضر. لم تنته هذه المرأة، ولكنها في الطريق إلى ذلك، فالمارد الذي كنت أتوقع أن تنفح عنه مغارة أحلامي السحرية، انقلب، بعد الزواج، إلى كيس نقود، وحقيبة سفر، ليس وراءها سوى الاتجار ببيع القمر نفسه، كسلعة يركض واصل للقبض على ضيائها واستثماره.

يقول إنه تاجر، وإن هذا مسلك التجار. ربما كان ذلك كذلك، لكنني أنا، راجعة فهيم المتبحر، لم أخلق لأكون زوجة شاه بندر التجار نفسه، إنني أكره اصطياد الغمامة لتحويلها إلى ورقة نقدية. الغمامة، والصباح، والمساء، والغابة، والبحر، أشياء للمتعة، وزوجي يريدها، في ركضة وراء البحر، إلى كلمات مدونة على جلد دفتره خداعاً.

يذهب كل أسبوع إلى بيروت، ويعود منها، ويستحل الحرام، ويغش في كل شيء، إذا كان كل شيء من متممات لعبته التجارية.

قلت له، في البدء، نصوحة:

- يا واصل، أنت تلعب لعبة خطرة، مشبوهة.

قال بدهاء مزوّق باللطف:

- مثل ماذا؟

- لا أدري على الضبط، ولكن انظر.. أنت تكثر من التنقل، وأموالك تتسرب إلى الخارج.

- ولماذا حرموا علي أن أتصرف بمالي كما أريد.. المنع، التحريم، التدخل في حرية التجارة، وحرية التحويل، هو الشيء السيّئ المرفوض.

- لكنها الدولة تفعل ذلك.. إنها تراعي المصلحة العامة.

- ومصلحة الأفراد؟ أليس للفرد مصلحة أيضاً؟

- بلى! لست معترضة على مصلحة الأفراد، ولكن.. دعني أذكرك بالمصلحة العامة، بينما أنت فرد..

- لو كنت فرداً لكنت محقة.. أنا لست وحيداً. أنا واحد من

كل.. وهذا الكل يريدون إخضاعه لمصلحة كل آخر.. هنا المشكلة.. إنه صراع.. هم الذين اعتدوا.. حق الملكية مقدس، فمن الذي انتهكه؟ لو كان والدك تاجراً لكان رأيه من رأيي..

- والذي كان يرتضي المصلحة العامة، أو بتحديد أكثر، مصلحة الشعب.

- هذه كلمة مطاطة.. الشعب، دون تحديد، كلمة مطلقة.. أسألك: نحن من نحن؟ ألسنا من الشعب؟ كيف تريدين أن يعيش نصف الشعب على حساب موت النصف الآخر؟

- لكن التجار ليسوا نصفاً آخر.. إنهم أقلية..

- التجار ليسوا أقلية.. التجار، بعد كل شيء، أصحاب ملكية، فإذا اجرينا إحصاء لأصحاب الملكية، تجارية أو نقدية أو عقارية، صارت الأقلية التي ترينها أكثرية.. ثم المسألة ليست مسألة عدد.. لولا الفعاليات الاقتصادية مات البلد.. من الذي يحييه إذن؟ قولي أنت، أو كفّي عن هذه الأفكار التي تسمم الحياة.

حين يحتدم النقاش على هذا النحو، كنت أكف. كان ينقصني الإيمان؟ تنقصني الحجة؟ لا أدري، لكنه في كل مرة، كان يحاول غسل دماغي قليلاً. صحيح أنه يفعل ذلك مقابل بعض التعب، بعض التنغيص، لكنه كان يرى أن واجبه، كزوج، يقتضيه ذلك. كان يقول: «لقد أدخل والدك في روعك أشياء رهيبة. نعم هذه هي الكلمة المناسبة: رهيبة! تتكلمين على مصلحة الأكثرية ومصلحة الأقلية، أليس هذا كلام الهراطقة؟ وهل من هرطقة أفظع من إثارة الناس، بعضهم على بعض؟ أبوك، كما صرت موقناً، تجاوز الفلسفة إلى الإلحاد.. إنه ملحد، وقد كان عليّ، منذ البدء،

أن أعرف هذه الحقيقة، أن أكتشفها في الوقت المناسب، غير أنني أتساءل: ماذا لو اكتشفتها غداة تعارفنا؟ هل كانت تحول بيني وبين خطوبتك؟ وهل كنت أفسخ الخطوبة، لو تبين لي أن فلسفة الوالد انتقلت بهذا الشكل إلى البنت؟ أرغب عن فتح الدفاتر العتيقة. ما تم قد تم.. خطبت وتزوجت وأنجبت، صرت في وضع كان من المفروض معه أن تزدادي هياماً بي. المرأة، بعد كل شيء، تحب الرجل الناجح، وقد حققت نجاحاً يتطلب حباً يبلغ درجة العبادة، لكنني لا أرى ذلك في عينيك.

بعد هذه الخطبة المكررة عن النجاح، وبعد الانفعال الشديد، يهدأ، ويحاول ملاطفتي:

- ماذا تريدين يا راجعة؟
- لا شيء.
- كيف لا شيء؟ .. ألست سعيدة؟
- سعيدة..
- لكن السعادة لا تشع في عينيك. لا تضوّي في ابتسامتك. لا ترن في كلماتك.. ولماذا لا تجنّين من الفرح لنجاحي؟
- أنا أقوم بواجبي..
- الزوجة، حين تقوم بواجبها، تكون زوجة لا حبيبة. كيف يستطيع المرء أن يحول زوجته إلى حبيبة؟ هل الذنب ذنبي، إذن، في آخر الأمر؟ وماذا عليّ أن أفعل؟ أنا لا أستطيع قطاف نجمة تتعشقينها؟ ثم ما هي النجمة هذه؟ خيال شعراء.. بوهيمية لعينة مفسدة. الجو الأبوي أفسدك. جاءت الموسيقى فطفح الكيل. لست أمانع في أن تعشقي الموسيقى، أن تعزفيها، أن تحضري حفلاتها،

غير أنني أتأذى حين تصادرك الموسيقى. لا أسمح لشيء، في هذه الدنيا، أن يصادرك. فعل المصادرة أقوم به أنا. هذا حقي، أنت زوجتي، وأنا أؤدي واجباتي. أقول لك: هذه الصفقة عادت علينا بكذا ألف، فتبتسمين باقتضاب، ابتسامة مبتسرة، كأنك غير مبالية، وآتيك بالحلي، فتتقبلينها شاكرة، كأنما أقدم إليك قدحاً من الماء. الذهب غير الماء، لا بد أن تفهمي هذا. والماس غير الذهب. لكن أنفك لا ينشمر من غبطة كما أتوقع... ماذا تريدين إذن؟ ها هو الزوج الغني، والطفل الجميل، والبيت الواسع، المفروش بأجود الأثاث. ما يغيظني أنك مكتفية بذاتك، تقبلين على اللذة وكأنك مشدودة إليها شداً، وتدعين أنك بلغت منها ما يكفي، دون أن ألمس الدليل في عينيك، في يديك، حركاتك، كلماتك، حتى بتّ أخاف أن يحل فتور بيننا، مصدره أنت، وأن يتحول الفتور إلى جفاء فقطيعة.

أقول له:

- أنت مشغول، الوقت كله بتجارتك، بعملك، بعمالك، بأصحابك، وليس لك هواية، ولست، كما توقعت، متذوقاً للموسيقى، للشعر، للأدب، للفنون.. حياتنا جافة، جافة كقرمة يابسة، ما نفع المال، إذا لم نعرف أن نستمتع به؟

يقول:

- كيف أتفاهم مع امرأة تجحد نعمة الله؟

يضيف:

- اسمعي يا راجعة! المال بذاته متعة.. ثم إنني، يوم الجمعة..
- إلى الجحيم بيوم الجمعة هذا...

- ماذا تريدين إذن؟ أنا لن أتحول إلى فأر قارض للكتب، ولست أفعى حتى تخرجني موسيقاك من وكري.. إنني صاحب معمل، وصاحب تجارة، وعملي يستغرقني. ثم عليّ واجبات.. ألا يكفي انني أوفر لك الوقت، والراحة، وأدعو ضيوفي، مرات في الأسبوع، إلى مطاعم المدينة، حتى لا أرهقك بتقديم الضيافة لهم؟

- ومن هؤلاء الضيوف؟ بمثل هؤلاء لا تقوم حياة اجتماعية..

- الحياة الاجتماعية تقوم من هنا، من بيتنا، من الألفة بيننا.. ثم إنك تكرهين زوجات أصدقائي، تزعمين ألاّ نفع فيهن، وأنهن تافهات..

- حين لا يعرفن من الحياة سوى الطبخ والنفخ وتربية الأولاد، ومن الحديث سوى الكلام على الفساتين والمجوهرات، أشعر بأنني عاجزة عن مجاراتهن.

- هذا لأنك غريبة، ولأن الكتب سممت أفكارك.. ولأن والدك..

- كفى! دع والدي..

- إنني لا أسيء إلى ذكراه.

- مجرد ذكره إساءة..

- اسمحي لي، إذن، أن أصارحك: إن حياة والدك كانت إساءة في إساءة! اللعنة على الفلسفة.. اللعنة على فلسفته التي لم أستطع فهمها.. إنه صاحب فتنة.. صاحب فتنة لا أكثر.. لكن الله رد كيده إلى نحره، فمات دون أن يستطيع إشعالها..

- أتشمت به لأنه مات؟ وهل ستخلد أنت؟

- لا أشمت.. استغفر الله.. أنت التي دفعتني إلى هذا الكلام..

ثم يميل إلى المصالحة:

- اسمعي يا راجعة! لدينا طفل هو قرة عيوننا، ولدينا المال.. وسآخذك في رحلة إلى أوربا هذا الصيف..

- سافرت معك ورأيت.. أنت ترحل للعمل.. لا تعرف أن تستمتع.. لا ترى أهمية لشيء، باريس مدينة تجارة، هذا كل ما تعرفه عنها. وحدي زرت المتاحف والكاتدرائيات.. وحدي حضرت الباليه والسينما، ووحدي قضيت الليالي.. لقد كنت، هناك، أسيرة الفندق.. وحتى الطعام رغبت أن نتناوله في محلات الخدمة الذاتية، على الواقف..

- وماذا يعني لو اقتصدنا المال والوقت؟

- ولماذا نقتصد؟

- ولماذا التبذير؟

- أن نعيش فليس معنى هذا أننا نبذر..

- لكنك مبذرة..

- تراني مبذرة لأنك مقتصد..

- وهذا المال الذي بين يديك؟

- إنه في صندوقك..

- وماذا ينقصك؟

- لا شيء.. لنتعلم أن نعيش فقط..

- وكيف يعيشون؟

- أقول لك لنتعلم..

- وهل العيش علم؟ ماذا هناك غير الطعام والشراب واللباس والبيت؟

ـ لا شيء.

ـ لنشرب إذن كأساً من الويسكي، سنكون على ما يرام.. سنتحدث في شؤوننا.. ثم ننام.

بعد ذلك يغادرني دون أن أقول شيئاً. يفهم أني أصمت لإنهاء النقاش. أنا أريد أن أنهيه فعلاً. كفى!! إذا كنت قد أخطأت في الزواج فإنني أنا، أنا وليس غيري، من يستطيع تقويم كل شيء عند اللزوم.

اعرف أنه عنيد. أخبرني بذلك كثيراً، حين يتحدث عن نفسه بسرف، يقول: «كنت عنيداً في صغري، والدي قال لي: ما رأيت مثل عنادك.. لكنه، شهادة الله، عناد مفيد، أعني يخدم مصلحة هذا البيت.. أنت يا واصل لم تطلب شيئاً إلا نلته.. تعرف كيف تندفع، لكنك تعرف كيف تتراجع.. ابن أبيك!» من أجل ذلك كنت أثيراً عنده، ومن أجل ذلك رغبت أن أحقق الحلم الذي فشل هو في تحقيقه: أن أصبح صاحب ملايين.. والآن، حين صار الموسم على البيدر، علي أن أعرف، كالمزارع الشاطر، أين أضع الحنطة وأين أضع الزؤان، علي أن لا أترك شيئاً في العراء. الذين يدعون بيادرهم عرضة للأمطار، لا ينفعهم الندم حين يأتي السيل ويجرف هذه البيادر، من أجل ذلك لا أريد أن أندم، قد أكون ساذجاً في أشياء، لكنني فهلوي في أشياء أخرى. هذه تتعلق بتجارتي، وأنا بها خبير، ولن أتأثر بأيما نقاش، أو نكد، أو خصام بشأنها. المرأة موضع اعتبار، ولكن ما أسهل أن يحصل المرء عليها، والولد عزيز، لكنني قادر أن أنجب، أما عملي فإنه إذا تهدم مرة فمن الصعب أن أبدأ من جديد.. إنه كلام جميل ذلك الذي يقولونه، تشجيعاً لمن أفلس، إن عليه أن يبدأ من جديد، وقولة المفلس: «سأبدأ من جديد» فيها عزيمة، لكن الشجاعة، العزيمة،

بعد النظر، هو ألا نفلس، هو ألا ننتهي، لكي نبدأ من جديد. ليس من العبث أنني، في الجامعة الأميركية ببيروت، اخترت «الاقتصاد السياسي». لم أكمل الدراسة؟ هذا شيء، وحسن الاختيار شيء آخر، لقد أفدت من السنتين الدراسيتين في تجارتي، لا اللغة الإنكليزية وحدها، ولكن فهم طبيعة العملية الاقتصادية معها... والآن، تأتين يا راجعة، يا عزيزتي، لتهدمي كل شيء، باسم الفضيلة. السوق لا تتعامل بالفضيلة، ولا تحتاجها. ولا أنا، ولا سواي، بحاجة إليها.. لندعها ترقد الآن، بسلام، ما دام أحد لا يربح منها. لست مع الرذيلة، ولكن ما دامت «الرذيلة» هي فضيلة هذا الزمان... أقول «الرذيلة» بمفهومك، لكنها، بمفهومي، ليست كذلك، التجارة، بعيدة عن هذه المشاعر النسوية الرقيقة، وأكثر بعداً عن مشاعر والدك الخاطئة.

يجيء بالويسكي.. وينشط في الشرب يرفّه عن نفسه، يحسب أنه أرضاني بكلمة «عزيزتي» التي تصدر عن شفتيه لا قلبه، وفي حال كهذه أنسحب إلى غرفتي، وأبكي والدي الذي يسيء يومياً إلى ذكراه.

كان بيتنا في شارع المالكي، كان بيتاً كبيراً، اشتراه واصل بمئة ألف ليرة فأصبح ثمنه مليوناً، هذا الربح العقاري، كان ربحاً إضافياً، ربحاً، حسب تعبير واصل، هبط نعمة من السماء، وقد قال ذات ليلة: «كم هو جميل أن يصبح المرء مليونيراً على هذا النحو..» ثم أضاف: «ما هو مزعج، أن كل المالكين، في شارع المالكي هذا، صاروا أصحاب ملايين... أين الفرادة إذن؟»

إنه يشرب الويسكي كل مساء، الويسكي بالكولا... وكنت

أجلس قبالته أتأمله. إن شيئاً يشلني في هذا البيت، كان أكبر مما يجب، وفي كبره كنت أضيع، أحس بحاجة إلى ملء الغرف حتى تضيق. أحنّ، دون انتباه، إلى كوخ. الكوخ يلائمني، يكون بحجمي، فاتحته بما أشعر به فقهقه: «أنت لا تقدرين النعمة.. بيت كالقصر، وتشعرين بالضجر؟» قلت: «كبره هو الذي يشعرني بالضجر. أجده أكبر مما أريد، أكبر مما نحتاج، هل تفهم ما أعانيه؟» أجاب:

ـ وكيف كانوا، في الماضي، يسكنون القصور؟

ـ لا ادري..

ـ أنت تحنّين لبيت والدك..

ـ لا أنكر ذلك.. كان بيتاً صغيراً وجميلاً..

ـ هذا، عدم المؤاخذة، هراء.. إنني، يا راجعة، لا أستطيع حتى المقارنة بينهما، بيت بمليون..

قاطعته:

ـ لكن الملايين لا تصنع سعادة..

ـ أفهم.. المال يحتاج إلى بنين.. وها نحن، والحمد لله، قد صار لنا ولد.

ـ الولد بعض السعادة، وليس السعادة كلها..

ـ هذا مؤكد، الولد نصف السعادة، والمال نصفها الآخر، نحن نملك المال أيضاً، بيتنا وحده بمليون..

«أقول له: إلى الجحيم بالبيوت والملايين كلها؟»

ستة أعوام مضت على زواجنا. كنا، في البدء، نسكن بيتاً صغيراً في المزرعة. كان واصل تاجراً صغيراً. كل التجار، في شارع

المالكي، كانوا صغاراً، كبروا بسرعة. في أيّ زمن يكبر التجار بسرعة؟ اشترى هذا البيت، انتقلنا إليه، صرنا من الطبقة الثرية. فرشنا البيت جيداً: ثلاثة صالونات، غرفتان للنوم، غرفة للضيوف، غرفة عربية. شرفتان كبيرتان، سجاد، آلات كهربائية. مطبخ ايطالي. القهوة تبرد، إذا نقلت من المطبخ إلى الشرفة، كانت المسافة كبيرة. كان البيت مفخرته. ثروة ثابتة كما يقول، لكنه يأسف «إنها ثروة لا تبيض» وعندئذ، يطيب له الكلام، لا على ثروته فقط، بل على توالدها أيضاً. الليرة تبيض، والألف تبيض، والمليون يبيض، وفي ممازحة يسألني:

ـ وأنت، يا راجعة، متى تبيضين ولداً آخر؟

كان هذا التعبير يشعرني بالدونية، كانت رومانتيكيتي تتأذّى كأنك دلقت على ثوبي الأبيض فنجاناً من الزيت، لذلك أرجوه:

ـ أليس لديك كلمة ألطف؟ أنا، بعد كل شيء، لست دجاجة..

ـ كل امرأة دجاجة.

ـ وكل رجل ديك؟ أليس كذلك؟

ـ لا أقصد هذا.. الكلمة في حدودها.. البيض هم البنون، والدجاجة أم البنين.. وفي هذه الحال تكتمل البهجة.. يموت الإنسان مرتاحاً..

ـ يعرف أن ثروته إرث لبنيه.

ـ يعرف أن الغرباء لن يسطوا عليها.. اسمعي يا راجعة: هذه، الثروة، شغلت بال الناس منذ وجدوا. البنون، حين يرثونها،

تصبح محفوظة.. لذلك أنتظر، بقلق وشوق، يوم تبيضين ولداً آخر.

أقف كأني صفعت:

ـ كفى! اللعنة على هذه اللفظة.. أكاد أراجع تقززاً.. إنك بارع في تجريد الأشياء من بهائها.. لا أريد سماع لفظة كهذه..

ـ كيف يقولون ذلك فلسفياً؟

«يا للسماجة»

ـ اسأل الفلاسفة..

ـ لا بد أنك سمعت شيئاً من هذا القبيل من والدك..

ـ والدي كان يتقي ألفاظه.. لم يكن سوقياً..

ـ لذلك عاش بائساً.. بدّد الثروة الصغيرة التي تركها له والداه.. لم يعرف كيف يجعلها تبيض.

أقرّ إلى غرفتي، أفكر: «المصيبة أن هذا الإنسان، بكل بيضه الزنخ، سيلقي بنفسه علي، حين يتقدم الليل». كانت هذه الخلوة الليلية، هذا التعاطي المجرد من الشاعرية، يرهقني كأنني. حسناً! كنت أشعر بالاشمئزاز من التجويفة السوداء داخل فمه، ومن شفتيه اللتين تقطعان نتفاً من لحمي، فلا يكاد ينتهي حتى أهرع إلى الحمام، وبكثير من العنت أتوصل إلى غسل نفسي.

ومع أنه لم يكن قبيحاً، ولا تنقصه الوسامة، إذا أخذنا الأشياء بموضوعية، وأن سمرته الخاصة، وشعره الأسود، المجفف بالسشوار، وعينيه المستديرتين، تعطي طلعته صورة رجل مقبول، فإنني اكتشفت فيه عيباً مغيظاً بعد الزواج: كانت ذقنه، في استدارتها التحتية، صغيرة، مضمومة إلى الداخل. وقد جربت ألاّ

آبه لذلك، لكنني لم أستطع نسيان هذه العيب. ومع مضي الأيام، ازداد غيظي من نهاية ذقنه المضغوطة، وازداد انزعاجي من لجاجته في طلب الجنس، وانصرافه إلى عمله، لا بدافع من الجهد البشري الواجب حيال العمل، بل بحرص الإنسان الساعي إلى الكسب، ولا شيء غيره، حتى أنه، في بيته الأنيق، لم يفكر بلوحة لأحد الرسامين، ولا بمكتبة، سوى الأنسكلوبيديا بريتانيكا، ومجلات اقتصادية، وصحف يهتم منها بجداول البورصة وأسعار العملات.

كان قد اغتمّ كثيراً في نهاية الستينات، حين صدر قانون التأميم، لكن هذا القانون لم يشمل معمل النسيج الذي يملكه، وإن كان خوفه، من تشميله، ظل قائماً، وما برح قائماً، حتى بعد أن تأكد، مع الأعوام، ألا تأميمات جديدة، وأن معامل الغزول التي تأممت، ليست ذات تأثير ضارّ عليه. بالعكس، فقد عرف، مع أمثاله من أصحاب المعامل الصغيرة، كيف يتعامل معها بذكاء، تطور إلى شطارة، وغدا القطاع الخاص، الذي يعدّ واصل نفسه واحداً من ممثليه، نعمة جادت بها السماء. كان، قبلاً، يشتري الغزول من السوق، ويخضع لتموجات الأسعار، أما بعد التأميم فصارت له كوتا من الغزول، محددة السعر، ينسجها ويبيعها بسعر غير محدد.

في البدء، قال لي، فكرت في الهجرة، قلت في نفسي: «هذا بلد لم يعد يعاش فيه».. ولكن.. كل عقدة لها حلال.. أنا تاجر أباً عن جد، وقد وضعت رأسي إلى جانب رؤوس أمثالي وفكرنا: «القانون.. من ناحيته التشريعية، لا يمكن الطعن فيه.. إذا رفضنا ارتطمنا بجداره، وإذا قاومنا، صرنا وراء هذا الجدار. أخيراً اهتدينا إلى الطريقة السليمة..

لم أعلّق، كنت قد مللت حساباته وأحاديثه التجارية، فأضاف هو بلهجة فيها غير قليل من الزهو:

- ركبنا جدار القانون..
- ولكن القانون لا جدار له.. إنه كتابة على الورق..
- ليكن.. أنا أضرب مثلاً.. أرادوا، بقانونهم، وضعنا أمام جدار فماذ نفعل؟ الجدار لا ينطح. أنت مثقفة.. والدك كان يعرف أن الجدار..

قاطعته:

- والدي لم يكن يهتم بالجدران..
- ولكنه كان يحفظ الشعر..
- ماذا تريد أن تقول؟
- لا شك أنه يعرف مصير قرنيْ الوعل الذي أراد مناطحة الصخر..
- وبعد؟
- نحن كنا أذكى من الوعل.. ومن هو الوعل؟ إنه، في آخر الأمر حيوان، وأنا تاجر.. تاجر من دمشق.
- لدستويفسكي رأي غير جيّد في التجار.. لا يضعهم في خانة الأذكياء..
- ربما، ربما.. هل كان دستويفسكي هذا.. فيلسوفاً؟
- ديستويفسكي كان روائياً..
- ليكن كما تقولين.. لكن ذكاء التجار لا يعرفه الفلاسفة أو الروائيون.. إنه، بكلامنا العادي، شطارة..
- وما هي شطارة التجارة التي تعتبرها نوعاً من الذكاء الخاص؟
- البراعة.

- قل الحيلة..
- وما الفرق؟
- الحيلة لا تستقيم مع الأخلاق..
- للتجارة أخلاقها.. كل فئة لها أخلاقها.. لا تجرّديني من أنبل صفة فيَّ...
- العفو.. أنت نبيل وكل التجار نبلاء.
- أتسخرين!؟

انتصب على قدميه في ارتفاع حاد إلى أعلى، ساعده على استقامته أن جذعه كان في نضج الرجولة، قال وهو يقطع الصالون بخطى بطيئة، جيئة وذهاباً، وسيكارة تحترق على مهل في زاوية فمه: «أي نوع من البشر كان والدك؟.. إنه، بعد كل شيء، مهووس بالكتب، وها هي الكتب، في البيت الذي خلّفه، يأكلها العثّ والغبار.. أنا لن أهتم لها، اللعنة على جميع الكتب.. زميلي فريد كان رفيقي في كلية الاقتصاد، افترقنا منذ زمن، ذهب إلى اميركا، درس الاقتصاد السياسي، كتب ذات يوم: «إنني لا أرى في محافظ أبناء الفقراء الذين يذهبون إلى المدارس كتباً ودفاتر.. أرى فيها متفجّرات ضد النظام الاجتماعي القائم». كان والد فريد ملاكاً عقارياً كبيراً، بكلمة أخرى كان إقطاعياً، لكن هذه الكلمة التي كان لها بريقها ذات يوم، غدت سبّة الآن. لا بأس! أرسلت، أنا الذي لا أحب المراسلة، كتاباً إلى فريد هنأته فيه على مقاله.. إلى الجحيم بكل الكتب، وبكل مقتنيها وقرائها، لقد سمّم والدك أفكارك بكتبه.. من الخير أن هذه الكتب ما تزال هناك، في بيت الأبوة القديم، أعرض عليك أن تبيعها.. بينها مخطوطات.. قد

ـ ليس حيوانا كما تظن. . قيل عنه، مجازاً، إنه حيوان اجتماعي. .

ـ ليكن كذلك. . الحيوان الاجتماعي حيوان أيضاً. . وإلا ما معنى العبارة؟

ـ معناها أنه لا يستطيع العيش وحده، بمعزل عن الآخرين. .

ـ والآخرون وحوش أيضاً. . لست من محبي الفلسفة. . أنا لا أتعاطى هذا اللون. . الإنسان حيوان. . ويحتاج إلى العيش مع حيوانات. . وليكن الجميع حيوانات اجتماعية. . ماذا يبدل هذا الأمر من حقيقة أنهم يتنافسون ويتصارعون كحيوانات الغابة، والأقوى هو الذي ينتصر؟ أنا ضربت لك مثلاً بالأسماك. . حتى في السرب الواحد، وفي الصنف الواحد، إذا كبرت سمكة عن الأخريات، أكلتهن. . أحسب أنك تعرفين المثل القائل: «السمك الكبير يأكل الصغير» إذا كانت مثل هذه الحقائق غير موجودة في كتب والدك، أو في الكتب التي قرأتها، فهي موجودة في الحياة. . الحياة هي المعلم الأول. . أنا تاجر. . حياتي تجارية، وأنا غير مخيّر في جهل قوانينها، أو في التقصير في تطبيقها. . افهمي إذن. . افهمي يا راجعة. . إنني أتعب، ولكن من أجل مَنْ بعد كل شيء؟ من أجلك، من أجل بيتنا. . حاولي أن تفهميني. ابتسمي قليلاً. . إذا ذكرت والدك بكلمات غير لائقة فأنا أعتذر. . أعرف، أؤمن، أنه كان رجلاً محترماً، كان شيخاً جليلاً. . وقد ربّاك خير تربية. . لكنني أريد مصارحتك بشيء كان خافياً علي. . علمته فيما بعد.

ـ وما هو؟

ـ والدك كان عضواً في جمعية سرية. .

قالت مغاضبة:

ـ هذه من خصوصياته، فما شأنك أنت به؟. . ثم هذا هو السر؟. . يا له من سرّ إذن!

ـ يا ربّي. . كلما حاولت مراضاتك استشعرت إهانة وازددت غضباً. . أردت، وهذا معروف عن الذين يتعاطون الفلسفة. . أنه كان هرطقياً. . وله صلات مشبوهة.

ـ أهذه تهمة جديدة؟

ـ أبداً. . ما أردته أنه كان يتردد على أناس ماديين. بينما أنا، واحفظي هذا جيداً، أؤمن بالروح.

تأملته ملياً. فكرت فيه، في سلوكه، في أقواله، في الطبيعة اليقينية للصح الذي يعمله، في وجدانه المغسول جيداً بماء معطر، في ذقنه المضغوطة، في شخصيته المنسجمة مع نفسها، في التلاؤم العجيب بينه وبين الفساد، في اطمئنانه، كتاجر، إلى حسن الوسائل ما دامت تبرر غاية الربح التي هي عنده غاية حياة كاملة، وقلت في نفسي: «واصل معذور في كل شيء. الغلط الكبير الذي اقترفه أنه تزوجني ، هذه غلطتي أيضاً. . ثم من المسؤول عن كل هذا. ؟ والدي هو المسؤول لكن والدي كانت ترعبه فكرة أن يموت وأبقى وحيدة. كيف خانه بعد النظر، في موضوع خطير كهذا؟ أم تراه، وهو الزاهد في الدنيا، أرادها رغيدة لي؟ ثم أليس هذا أمل كل أب بالنسبة لمستقبل ابنته؟ واصل كان تاجراً، وكان يتاجر بشرف، إذا أخذنا النسبة في الشرف، وجاءت قاذورة الفساد، فتحها إبليس، وتدفق ماؤها العكر، فغرق فيه الناس. . وكذلك غرق هو. أصبح يرشو، ويتملق، وينافق، ويستبيح كل المحرمات، وهذا مبرر من وجهة نظره، وعليّ أن أفهمه كما هو، لا كما أريده أن يكون، عليّ

أن أكفّ عن قول ما لا يجوز، ولا أسمح به لنفسي كزوجة، لها ولد، وحامل، وزوجها كل من بقي لها، وهو، برغمها، يسير في الطريق الملتوي الذي يسير به كل الآخرين من أمثاله. إنه يتكلم بمنطق تاجر. . أنا أرفض هذا المنطق، والدي كان يرفضه، الذين كان يجتمع بهم يرفضونه. . كانوا يفهمون الروح بشكل أجلى، أنقى، أمضى، كان اعتبارهم المادة اعتباراً لواقع الحياة، اعتباراً بأن الحياة تمضي، وستظل تمضي، وأنها في سيرورتها تتغير. وأنها تغيرت في بلاد أخرى، تغير فيها منطق التجار نفسه. . المثل الذي ضربه واصل عن السمك صحيح. . التاجر الكبير يأكل الصغير، كلهم يركضون كي يكونوا كباراً، كي يكونوا ذئاباً، هذه حال غابتنا، وعلينا، إلى أن يسود قانون آخر، أن لا ننكر هذا القانون. الاقتناع به شيء ورفضه شيء آخر. . لا بدّ من التعاطي، في حياتي الزوجية التي فرضت عليّ، دون مشاكسة زوجي. . إنني محكومة. . محكومة. .وهذا الجنين الذي في بطني قيد جديد في يدي. . والدي علّمني الوفاء. . ولكن لمن؟ قال إنني سألتقي راجع. . هل كان يقصد الوفاء لراجع؟ ومن هو راجع هذا؟ متى يظهر؟ متى يأتي؟. . . وهل إذا أتى أستطيع أن أخلص شعري من أصابع واصل الأخطبوطية؟ هل أستطيع أن أترك بيتي وأولادي وأتبعه؟ وإلى أين؟ إنني أواجه مجهولاً، ظلمة، مصيراً غير محدد، وهذا ما يفرض عليّ أن أرتضي مصيري المعلوم هذا. . أن أدع واصل وتجارته ومنطقه، أن أكون زوجته، وأطيعه دون أن أشاركه قناعاته. . . وإذا كان لا بد، بحكم الواجب الزوجي، أن ينال جسدي، فهو لن ينال سوى جسد ميت. . .»

يدخل واصل مكتبه لإنجاز بعض حساباته، ظللت وحيدة.

كنت أحس بالغربة. الألفة تأتي من التفاهم، من وحدة الأفكار، من العاطفة المتبادلة، وهذه كلها مفقودة، وليس من شيء حبيب إلي في هذا البيت سوى الكمان الذي أبثه أشجاني. . أعزف عليه تلك المقطوعة التي ليست لي، ولكنها ليست غريبة عني أيضاً. ربما سمعتها يوماً، لا أتذكر أين. وقد يكون عقلي الباطني هو الذي ألفها، ومن يدري، ففي بؤرة الهجوع، داخل الإنسان، تكون ذكريات هاجعة وتستيقظ. هذه المعزوفة كانت هاجعة واستيقظت. لا يمكن أن تكون ولدت معي، لكن منذ متى استقرّت في مخيلتي؟ ألم يقل والدي إن الطفل، في نشوئه، يمر بكل المراحل التي مرت بها البشرية؟ هذا كلام نظري في التربية. . لكنه، كما أكد والدي، صحيح من الوجهة التربوية. إنني في طفولتي، مررت بكل الأطوار، ومنها الطور الموسيقي. . «البشرية، في الأصل نغم» قال والدي، سألته كيف؟ شرح لي: «النغم ولد مع الخليقة، وبه عبّر الإنسان البدائي عن نفسه» سكت والدي ففكرت: «هل هذا نزوع غريزي يعبر عن نفسه دون إرادة. . وهذه المعزوفة، التي هي نغم بدائي، هل ورثتها عن الطور البدائي في طفولتي؟».

أخرجت الكمان من صندوقه، كان الباب مغلقاً. . هي ونفسها. . هي وروحها. . وتذكرت قول والدها: «الروح مجموعة المشاعر التي في الإنسان، وهذه مصدرها الجهاز العصبي» ستوقظ مشاعرها الآن، تنفخ في روحها شيئاً من عزاء وشيئاً من فرح، عليها، وهي تحرك، كنسمة مسائية في أيلول، غصن روحها الساكن بأوراقه الخضر الكثيبة، أن تخلق، أو تدخل دنيا التأملات التي تولدها المشاعر. . . إنها ستعزف له. لراجع. . قد لا يكون ثمة

راجع، ولكنها ستخلقه.. تتصوره، تراه مقبلاً من وراء الدهور، من بداية اللحن الذي، ربما، تكون سمعته منه، أو معه، على شاطئ بحر، في عرزال غابة، في جلسة تحت ضوء القمر، أو في حقل وهما يعملان. غير أنها سرعان ما تخلّت عن عزف مقطوعتها الأثيرة، مالت إلى انعاش روحها، إلى تقوية إرادتها، إلى تفجير شيء يريد أن ينطلق من ذاتها، فعزفت نشيداً كان يحبه والدها.

بدأ اللحن قمرياً. نوراً يُحس، يُرى، ولا يُلمس، يُحب ولا يُمسك، لا تستطيع أن تحتويه، أو تقبله، شعاع فضي ملء الكون، ينسكب كشلال بغير صوت، من عين لا مثيل لمائها الغوريّ على الأرض. وكان خنصرها يضغط برفق، متنقلاً، بحركة امتدادية، مستطيلة، على طول عنق الكمان. لم يكن لحناً شرقياً، لم يكن لحناً غربياً، أو بيزنطياً، إنه ينبثق من قاع عميق، كأوف خافتة، تخرج من الضلوع همساً على الشفاه.. فجأة انتقلت إلى القرار. السبابة تحركت لتعطي رفيفاً غيمياً على وجه القمر.. انتشر الرفيف. الغمام انخفض، انخفض أكثر، لامس وجه الماء، قبّله، استأذنه في الصعود، مع إشراقة الشمس الأولى.. ومع صعوده ارتفع النغم.. صارت الأنامل أكثر ضغطاً على الأوتار، والقوس عاد إلى الجواب. إنه ابتهال. الكمان يبتهل، ويتعالى الابتهال، صلاة من الأرض إلى السماء.. أيتها السماء، يا رؤيا زرقاء تفعمين الفضاء بشيء ولا شيء.. ثمة، وراء لاشيئك شيء.. كوكب كبير.. إننا إلى هذا الكوكب نتوجه بأدعياتنا، في استجلاب الخير ودفع الشر.. زرعنا، والمطر، والشمس، والنضوج، وأيام الحصاد، ووداعاً للصيف، وحزناً رقيقاً، شفافاً للخريف.. ثم زمجرة: الرعد.. دوي يتداول

السمع كأنه ينطلق من جوقة تقف على رصيف أمامها يمر الشعب في انتفاضة غضوب، وبعده يأتي الجند الثائرون، وطلقات مدفع.. «أمس كان باكراً، وغداً يفوت الأوان.. اليوم» ويهدر نشيد.. وتعصف عاصفة، تشتد العاصفة.. يحدث انفجار... تتفتح زهرة، وأخرى، وأخرى، ويزقزق عصفور.. هذا هو الربيع، ربيع النصر.. بلغ التمرد ذروته، وانداح، بعد ذلك، دوائر نغم تتوزع في الرياح الأربع، فتحملها بعيداً، وتضيع معها بعيداً، فلا يبقى إلا رجع الصدى، إلا أنين أرغن في كنيسة، في ختام معزوفة لشتراوس.

انشق الباب عن وجه زوجها المبتسم: «برافو!» «شكراً» «لمن كنت تعزفين؟» «لنفسي» «وأيضاً؟» «لوالدي» «وأيضاً؟» «تقول له: «لراجع»؟ قال واصل:

ـ الحي أفضل من الميت..

ـ هذا ما أتعلمه شيئاً فشيئاً..

ـ إذن اعزفي لي أغنية..

ـ وما هي أغنيتك المفضلة؟

ـ لا أغنية مفضلة لي.. أية أغنية خفيفة.

ـ آسفة!

ـ لماذا؟ تحتاجين إلى إيقاع؟ أنا أصفّق..

ـ قلت لك آسفة.. سأذهب لأعدّ مائدة الطعام..

ـ ولكن ليس قبل أن نشرب كأساً.. اسمعي، في البار كل أنواع المشروبات.. ماذا تفضلين؟ أنا سأتناول قدحاً من الويسكي..

ـ وأنا قدحاً من الجن..

ـ ألن تعزفي لي؟
ـ لا أحسّ برغبة في العزف.
ـ وماذا ستسمع؟
ـ لدينا شريط لصباح. . أما أنا فأفضل فيروز. .
ـ يمكن أن نسمع فيروز. . أي شيء لفيروز ما عدا الشآميات. . لا يعجبني الشعر ولا المعنى. شبعنا وطنيات. .

تذكرت ربيع. كانت الشآميات قصائد عزيزة عليه. إنه يفهم الشعر واللحن، يتذوق الموسيقى. قالت:
ـ أفضل ما تغنيه فيروز هي الشآميات.
ـ قد يكون هذا صحيحاً، لكنني أفضل «الطقاطيق» بعد تعب نهار كامل، أريد سماع ما يفرح. . لقد كان نهاراً طيباً، وعليّ، بعده، أن استمتع، أن أشعر أنني سأعيش مئة سنة. .
ـ ولكن المئة سنة ستنقضي أيضاً.
ـ وهذا مؤسف. . يركض الإنسان ويجمع، ثم يترك كل شيء. . أليست هذه مصيبة؟

ـ بل هي فاجعة. . لكنه قضاء الله. . تمرد إذا استطعت. . الفراعنة قبلك حزنوا لهذا المصير، عز عليهم أن يتركوا كنوزهم، فدفنوها معهم. .

ـ لم يكونوا على خطأ كبير. . لكنني لا أوافقهم على تفكيرهم. .
ـ لماذا؟
ـ هكذا.
ـ ولمن ستورث مالك؟
ـ طبعاً لأولادي. . ولكني، كيف أعبر، لا أريد أن أحرم منه أنا

نفسي، وهذا ما يؤلمني. . أريد أن أعيش مئة عام. . أريد أن أمتلك وأمتلك وأمتلك، ولكن ما هو معذّب، أنني سأترك هذا الذي أجمعه. . تلك هي اللعنة. . هل يمكن لإنسان ألا يفارق الذي جمعه؟
ـ أفهم مشاعرك، وعذاباتك. . أخشى أن تمرض نفسياً.
ـ قولي لا سمح الله. . أنا بتمام العافية، والوعي، والقدرة على الحياة. . هناك ما يجعلني سعيداً أيضاً. . اسمعي، سأزفّ لك بشرى سارة، عقدت اليوم صفقة غزول جديدة.
قاطعته:
ـ لا تفوتني ملاحظة صفقاتك حين تكون مسروراً. . أعرف كيف عقدتها، لكنني أتطلع إلى أشياء أخرى في الحياة، غير صفقات الغزول. .
ـ مثل ماذا؟
ـ أعفني من تعداد أشياء كررتها كثيراً. . تريد الويسكي بالثلج؟.
ـ ومع قليل من الكولا. .

غادرته وهي أقرب إلى اللامبالاة. قالت في نفسها: «لا فائدة! عمل، عمل، عمل، ويوم الجمعة كآلاف أمثاله، غداء في بلودان أو سهل الزبداني. . هذا كل شيء. . لا سينما، ولا مسرح، لا معرض، لا متحف. . ولا رغبة في زيارة مكان أثري. . قلت له: «لنذهب إلى تدمر» قال: «وما نصنع هناك؟» يا إلهي! أقول لك تدمر وتقول ماذا نصنع هناك؟ والآثار العظيمة. .؟ أجابني: «لا وقت لديّ للتفرّج على كومة من الأعمدة والأحجار» لكنه، في اليوم

التالي، حمل إلي هدية: خاتماً من الماس، قال:

ـ هذا أم تدمر؟

«ماذا أقول؟ يفضل الطقاطيق على الشآميات، وأغنية لصباح على أية سونيتة، والمجوهرات على آثار تدمر. لكن لكل شيء قيمة، فلماذا لا يرى قيمة إلا في المال وما يعبر عنه ويدور في فلكه؟ صحيح أنه يترك لي حرية الذهاب، ومشاهدة الأفلام والمسرحيات، وسماع الحفلات الموسيقية، لكنني ما أن أعود منها إلى هذا البيت، حتى أحس أنني هبطت من القمر إلى الجحيم.. إنه عمليّ في كل شيء، سيشرب الويسكي الآن، ثم يقوم إلى الفراش ليمارس الجنس بطريقة فظّة»

عاد واصل يسأل والخاتم المشعّ في علبته المخملية:

ـ هذا أم تدمر؟

ـ لكل منها قيمته.

ـ هل أصبحت للأحجار قيمة الماس؟

ـ وقيمة التاريخ؟

ـ محفوظة في كتب المدارس.

ـ وعقولنا.. ماذا يبقى من الإنسان إذا ملأ معدته وترك رأسه فارغاً؟

ـ أنا لا أقول هذا.. لنملأ رأسنا، ولكن بشيء يفيد، بشيء يعود علينا بربح..

ـ والمعرفة؟

ـ تحصلين عليها من أي كراس يتحدث عن آثار تدمر..

ـ ولكنك تذهب، كل أسبوع، إلى الزبداني أو بلودان..

ـ هذا ما يفعله الآخرون..

ـ الوجهاء؟

ـ وما عيب الوجهاء؟ تنكرين عليهم أنهم يعملون ويربحون ويروّحون يوم الجمعة عن أنفسهم؟

ـ بودّي لو يفهم وجهاؤك المحترمون أن في الدنيا أكثر من العمل، وغير النزول نهار الخميس إلى بيروت لإيداع أموالهم في المصارف، وغير نزهتهم يوم الجمعة إلى الزبداني لملء بطونهم ببعض اللحم والحمص والتوابل.. يا إلهي! تجمّدت الدنيا على هذه التوافه؟

ـ التوافه في نظرك، هي مسرّات في نظرهم.. المسألة كلها محصورة بالتلاؤم.. أنت لا تتلاءمين مع الجو من حولك.. أنت شاذّة أو مريضة.. لا تدعيني أخرج عن طوري.

سكتت على مضض. رحلت عيناها في أثر طيف بعيد، طيف ملون بهالة قوس قزحية، في عينيه شوق وفي يديه نار، وفي طلعته الطمأنينة، والحلم والمدى.

وتتذكر كلمات والدها عن راجع الذي سيأتي، الذي سيظهر في حياتها فيلوّنها، ويغنيها ويشعل في ذاتها شمعة كما أمام أيقونة، وتخاف ظهوره، وتسأل الله ألاّ يظهر، لأنه لن يفعل سوى إيقاظ شوق نائم، وبعث عواطف ترمّدت، ومناداتها إلى حياة أخرى، تريدها وتخافها في آن.

وإذ تبقى وحيدة، مركونة في الزاوية، تهدهد ما تبقى من مشاعر نوبة القلق، تروح تتساءل: «ألست أبالغ؟ ألا يزيّن لي الوهم لوحات من إشراقة الشمس؟ ألا أمدّ يدي إلى نجمة عالية عالية لا

سبيل إليها؟». إنها تريد، صادقة، أن تطامن شعور التقزّز هذا. يأخذها، في استئناف من ماضي تربيتها، تبكيت شعور. هي، بعد كل شيء، تساكن زوجها، تعيش معه في غرفة واحدة، وأحياناً في سرير واحد، وعلى مائدة واحدة، وهو يسعى لأجلها، ويعمل ليدّخر لها، وليجلب، فوق ذلك، كل ما تطلبه، ثم هي تقرفه، على نحو ما يكون الأمر مع حلزونة لزجة خارج غلافها الصدفي. تقول في نفسها «هذا ليس من حسن الخلق في شيء. أنا لن أكون لصة على أي نحو. إذا كنت على هذا الإحساس المنفر منه، فلماذا لا أتركه؟ لماذا لا أغادره وأعود إلى بيت أبي؟ لماذا لا أعمل، وأعيش من عملي؟» لكنها لا تترك، لا تغادر، لا تعمل. تستشعر رهقاً ولا تقوى على دفع الرهق، تريد ولا تستطيع تحويل إرادتها إلى عمل، إلى واقع، بل هي تخشى مفاتحته حتى بأفكارها هذه، حالمة، على نحو غامض، أن تحل الأيام، أو تلقي في الأيام، حلاً لمشكلتها.

كان شيء ما في أعماقها يناديها: «اصبري» وحين تثور على الصبر، يعاودها همس: «ليس بعد.. لم يئن الأوان» ومع أنها، عاماً بعد آخر، قطعت أملها من أن يأتي راجع وينقذها، فإن هاتفاً، في الليل، في الفجر، مع طلوع الشمس، مع مغيبها، يهتف بها بغير صوت: «راجع آتٍ فلا تتعجلي».

ربما، لو فطن واصل لحالها، لأزال بعضاً من متاعبها، كان نقص الفطنة لديه، يثيرها بدوره. تقول: «ألا يراني؟ ألا يحسّ بعذابي؟ ألا يستشعر برودة في جسمي وهو يحتويه؟. أليست في وجهه عينان؟ ألا تحس كفّاه؟» ثم تتذكر أنها هي التي علّمته أن يستخدم كفيه، أن يشغل يديه بشيء وهو معها. ألاّ يبقيها مسدلتين على جنبيه وهو

قبالتها، وبإلحاح منها تعلّم أن يقوم بحركة ما، بملامسة، بدغدغة، لكن ردود فعله هذه كان ينقصها الاندفاع الداخلي، الحرارة، العنف، الاشتعال، المبادرة، هذه التي لم تأت منه، ومبادراتها لم تتحول إلى أفعال. ظلت، بالنسبة إليه ردود أفعال، ومع الأيام كفّت، انطفأت، استقرّ في ذهنها أنه أطفأها، نقمت عليه أنه أطفأها، وازدادت عذاباً وهي بقربه، وتحوّل العذاب إلى نفور، كان جسدها يرفض، قلبها يرفض، حواسّها ترفض، ويزيد، في تأزيم هذا الرفض، أنها مضطرة إليه، وأن الليالي ترغمها على أن ترفض وتتجرّع كأس رفضها صامتة.

ولقد ضاعف معاناتها هذه أن واصل كان قوياً. كان، من حيث اللياقة البدنية رجلاً كامل الرجولة، أما من حيث الروح فقد كان خاوياً. ولئن حسب، وهو يقوم بما يتطلبه جسمه القوي، أن الإكثار من ذلك الشيء يرضيها، فقد كان واهماً. ورغبت، بأشكال مختلفة، وكلمات مختلفة، ومناسبات كثيرة، أن تفهمه ذلك، لكنه عبثاً فهم. كان محروماً، على نحو جيّد، من فهم عواطف الآخرين. وتلبية لمتطلبات جسده، كان يمارس معها لعبته الجنسية كل ليلة. أحياناً يرغب أن يمارسها في النهار أيضاً بعد غداء الجمعة في بلودان أو الزبداني، كان يشعر أن من حقّه، وقد أرضاها بإخراجها من البيت، وبغداء في مطعم عام، في مصيف جميل، أن يتقاضى حصّته من الثمن، وعندئذ يفرض عليها، باسم الزوجية، باسم الواجب، أن تذهب معه إلى السرير، وأن تتحمل ما يحاوله من خفّة روح، لا تزيد في نظرها، عن سماجة بالغة الإبهاظ، وكانت تحمد ربها، أن واصل، ما عدا يوم الجمعة، لا وقت لديه للمداعبات، وأنه في

سباق مع أصحاب التجارة، وأصحاب الشقق، وأصحاب البنايات. كانت ملايينه تزداد، لكن الراحة لا تؤاتيه، ما دامت ملايين الآخرين تزداد، وما دام الذين ليس لديهم، أو لم يكن لديهم قد صار عندهم، أصبحوا مثله، أصحاب ملايين، وعلى شفتي كل منهم، كما على شفتيه هو، هذه الموعظة الجليلة: «لا تسألوا من أين جاء المليون الأول، أما الملايين الأخرى فقد بذلنا جهداً لكسبها».
وكانت راجعة تنكر هذا الجهد، وكان والدها قد قال لها: «جهد هؤلاء الذين يصيرون من أصحاب الملايين، ويتكاثرون كالفطر، ليس سوى رشوة، سمسرة، ومضاربة، وكل ما يجلب المال، وما يحوّل المال إلى قصور، وإلى شبع حتى التخمة، بينما، في أطراف المدينة، أكواخ من طين، وعيش على كفاف، والمادة الغذائية، إذا وجدت، خبز وشاي وزيتون، بالنسبة لأكثرية الناس في المدن والأرياف».

صوت - ٥

انتهيت، مع الأيام، إلى كره نفسي، أمدّد جسدي على طاولة، كتلك التي في غرف التشريح، وأتناول كل الأدوات المعروفة، من المقص، إلى المبضع، إلى المشرط، وأعمل في جسمي تشريحاً، لأكتشف غدة عدم التلاؤم التي زرعتها الطبيعة في هذا الجسد. أغدو، في حال كهذه، أنا الطبيب والمريض بوقت واحد، أنا المشرح والمشرحة، في عملية وهمية تتخذ طابع حقيقة مأزومة تدور فيها. أعرف ألا فائدة، فالعلّة ليست في القلب، أو الرئة، أو الكبد، إنها في الروح، ولكن أين تسكن الروح في جسدي المعذّب؟ والذي كان يضحك من الذين يكثرون الكلام على الروح، ومن الذين يفاخرون بأنهم روحيون، وينسبون الفضيلة إلى الروح وحدها.

كان يبتسم، وقد غابت عيناه في نظرة داخلية مشرقة، وهو يتندر على هؤلاء الروحيين، وفي حال كهذه يقول لربيع المياس، الذي كان جليسه الدائم، تقريباً:

- وأنت، يا عزيزي، ألست روحياً؟

فيجيب ربيع، بنكتته الحاضرة:

- إنما أنا ماديّ ابن كلب، بفضل تعاليمك المبجلة.
- انتظر، سيرجمونك يوماً.
- سنكون، عندئذ، معاً في حفرة واحدة.

وقد قال لي ربيع، عند خطوبتي من واصل:

- ها أنت تخطبين بأحد اتباع الروح.
- قلت له:
- واصل واقعي جداً.

قال:

- لأنه واقعي جداً فهو روحي. أكثر الذين أخشاهم هم الواقعيون جداً، لأنهم روحيون جداً في اللحظة التالية.
- انتبه، أنت تنال من خطيبي..
- أنا أمدح خطيبك.. إنه، يا راجعة، روحيّ حتى الذوبان، من فرط شفافيته، وواقعيّ حتى اللعنة من فهمه للواقع حسب مصالحه.
- لكنه لا يبدو كذلك.. ألا تبالغ يا ربيع؟
- لن أزيد على ما قلت.. ربما كنت لا أعرف واصل على حقيقته.
- لكنك تعرفه على حقيقته.. أنت ذكي بما يكفي لتفهم الناس بسرعة..

قطّب وقال:

- هم! الناس، يا راجعة، لا يفهمون الآن بسرعة. إنهم يتشرنقون، يتمحّرون، يغلّقون أنفسهم بقماش خيمة لا تنفذ منه سكين.. وكلما رأيت رجلاً من هؤلاء، أراه في محارته.. نصف

الناس، على الأقل، يسيرون وهم في محاراتهم.

- أنت لا تحاول أن تفسد عليّ خطوبتي، أليس كذلك؟
- أنا لا أفسد ما هو فاسد. خطيبك يناصبني عداء خفياً هذه الأيام.. يحسب أن ما بيننا حب، وأنني بوهيمي قذر، يدسّ عليه لدى والدك.
- إنه يمزح.
- لعله كذلك..
- ألا يمزح؟
- واصل لا يعرف المزاح..
- لكنه ظريف..
- قولي يتظرف..
- يا إلهي! توشك أن ترسمه كاريكاتورياً..
- ومن أجل ذلك لن تريني حتى الزواج.

فعلاً لم أر ربيع إلا ما بعد الزواج، جاء للتهنئة، ولم يمكث إلا قليلاً، وصارت زياراته تتباعد، ولم أفهم السبب، لكن الأيام، بعد ذلك، تكفّلت بإفهامي.. كان زوجي روحياً تعيساً، ومادياً تعيساً، وكان واقعياً إلى درجة الإفراط.

وقد روى لي ربيع، ذات يوم، قبل أن أتعرّف بواصل، أنه حضر مجلساً لوالدي، سمعه فيه يسخر من زائر، ينعي عليه تقويمه للمادة، يزعم أن خلافه مع والدي جوهريّ، وأن مسافة ما بين تفكيرهما، هي المسافة ما بين قطبين، وأنه يؤمن بالروح، وسيظل يؤمن بالروح، وسيشنّ حملة في الصحف، أو قد يضع كتاباً، بشأن هذا الخلاف، لكنه يخشى أن يؤذي والدي، أو يستثير الناس ضده.